



الكتاب العربي السعودي ١٠٥

عبد الله عبد الرحمن الجفري

جزء من حلم

رواية قصيرة

الطبعة الأولى
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م
جدة - المملكة العربية السعودية



الكتاب العربي السعودي



عبد الله عبد الرحمن الجفري

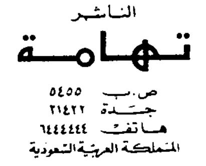


رواية قصيرة

الطبعة الأولى
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م
جدة - المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم




الناشر
تهامة
ص.ب ٥٤٥٥
جدة ٢١٤٢٢
هاتف ٦٤٤٤٤٤٤
المملكة العربية السعودية





جزیں حُلم



الإهداء

إلى كل أنثى ظلمها المجتمع، وعصف بها الحب ..
إلى كل "مطلقة" تحاول أن تجد نفسها من جديد ..
أهدي هذا الـ "جزء" من حلم !!.

المؤلف

الفصل
الأول



١

التقيت بك رؤية .. وتجدد اللقاء هنا في خيالي وتصوري .. كتبت لك، لأكتب عنك .

اليوم أنا أكتب لك .. لم أجرؤ على قول كل ما قلته في نفسي عنك، فأنت مكابر وقد تغضب مني وتثور .. وأنا لا أريد أن يمر يوم يعذبني فيه احساسي أنك غاضب .

كان أجمل يوم عشته .. ساعات قضيتها معك، عوّضتني سعادة تمنيتها، ومسحت أحزانا استمرأت العيش معي .. ولكنك عدت كعادتك وأدخلتني إلى دائرة الحيرة والقلق من جديد ..

ومرت أيام ثقيلة انتظرتك فيها تسأل عني، ولم تفعل .. وأفكر فيك وأعيش في دوامة من القلق عليك :

ــ ترى ماذا أفعل ؟!

وأسألها عنك ــ نفسي ــ ولا أجد جوابا شافيا .

وتبادرني معاتباً حتى لا أعاتبك، وتحاصرني اتهاماتك .. وأجد نفسي معتذرة، وأجدني أبرر لك غيابي وأنت من تعمّد الغياب !!

وأضحك في نفسي .. ولو كنت أمامي لقبّلت جبينك وأخذتك في صدري .. تصرفك هذا يصور لي أني أمام طفل شقي .. يحاول الاعتذار بالتهرب وإلقاء اللوم على الآخرين !

اشتقت إليك منذ اللحظة التي قلت لك فيها : وداعا .

راقبتك من النافذة وأنت تمضي، ولولا الآخرين لناديتك وطلبت منك أن تأخذني معك .. أردت أن أبقى معك وقتاً أطول .. أن أسمعك وأقول لك الكثير الكثير .. وفي المساء عندما طلبت منك أن نخرج معاً توقعت أن ترحب بهذا، ولكنك لم تفعل .. كنت منشغلاً بأوراقك التي جلبتها معك من عملك !

* * *

كيف أصف لك يوم الجمعة ؟!

هنا مشينا .. هنا وقفنا ، وعلى هذه الطاولة شربت «شاهيك» .

وعندما أحاول التشاغل عن التفكير فيك .. فجأة تقول أختي الصغرى : ليت «عادل» موجوداً !

خرجنا في مساء الجمعة .. أتدري من الذي دعانا ؟ رجل اسمه «عادل» .. صدفة غريبة أليس كذلك ؟

هو كبير في السن ، ولطيف .. تعشينا واستمتعنا بالموسيقى الهادئة أنا وأختي الصغرى وأخي .

أنت لا تبارح خيالي لحظة .. ماذا أحكي لك ، وماذا أصف ؟!

كأن رواية الأشواق لا تنتهي ..

لقد تحقق جزء من حلم ، وأسعدني ما تحقق ، وتمنيت لو وقع كل ما تخيلت .. هي هذه النفس التي لا تقنع .

وأسأل نفسي : هل كل ما أقوله هنا يهمك ؟!

هل يسعدك أن تكون ما أنت في نفسي ... لأني أنا ، أم لأنك أنت ؟!

تحيّرني أنت .. وكثير من تصرفاتك يحتاج إلى تفسير .

دخلت حياتي بعنف ، وقلتها : «أحبك» بسرعة ..

كأنك غاف وأفقت فجأة .. صدقتك ، لماذا ؟

ألأني أحسست بالصدق فيها عندما قلتها .. أم لأنني أردت هذا الحب وتمنيته .. أم كنت وسيلتي للهروب من حالة عذاب عشتها سنوات طويلة ؟!

ربما لأني في ماضي حياتي تصورت أنك الرجل الذي أحب ، وسنلتقي ونعيش كل ما حلمته .

قد يكون لهذه الأسباب مجتمعة .

وأنت .. لماذا قلتها ؟!

هل وقعت في نزوة الاستجابة لخيال في رأسك .. وليس لحقيقة ما أعنيه أنا في الواقع ؟

ما استطعت أنا أن أوازي أحلامك .. لأن الحلم دائما غير الحقيقة !

هل تحبني أنا .. هل عرفتني حقا .. وهل استحق الحب .. أم أنك لم تسأل هذا

السؤال أبداً؟!

ــ قلتها: «أحبك».. حين أحسست بهذا الحب، وامتنعت عن قولها هكذا أيضا!

سلوكك دائما غريب.. تختفي أحيانا لأ يام أو أسابيع قد تكون مشغولا، ودائما هذه حجتك!

وتغمرني بعطف وميل واضح أياما أخرى. أنت لا تدع لي فرصة لإقامة علاقة حميمة معك.. علاقة إيجابية بتكرار اللقاء، وازدياد التقارب.. تريد نفسك كما هي، وتريدني في موقعي هذا بين بين.

تقول لي أحيانا ــوأصر على أحياناً هذهــ تحب أن تقول لي ما يسرني و يسعدني.. ربما لتسعدني فقط، وهكذا أشعر، وقد يكون ذلك عملية تعو يض عن نقص في مشاعرك نحوي تحسه، ورغم هذا تريدني!

هذه نقطة قد لا أستطيع شرحها جيّدا.. إنه حدس لا أعرف كيف أفسره!

كثيرا ما أشعر أنك غير منسجم مع نفسك، وأحيانا أشعر بالعكس!

أجدك إنساناً متمحوراً حول نفسك.. لا تفكر الآ في كفاية حاجتك عندما تقاطعني، ولا تبدي اهتماما ولا حماسا لفكرة أن يساعد كل منا الآخر.

لماذا كل هذا القلق في كلماتك؟!

ألمسه وأسألك ولا تجيب، ونبرات الحزن الذي يسكنك و يلوح دائما.. أيضا لا تفسير!

وذاك التذبذب في عواطفك؟!

أحبك قريبا.. حتى أني لم أعرف انساناً كما أعرفك.

وتبتعد، وتتصرف بطريقة تحيّرني، وأعود لأفكر من جديد، وأعيد حساباتي.. ولا أعرفها، ولا أعرفك!!

* * *

أنت المخلوق الرقيق الحساس المتدفق حيو ية.. الممتلىء حبا وحنانا وتفهما وإدراكا.. تكون قاسياً وعنيداً وعصبيا إلى حد لايطاق؟!

هناك شيء مهم: أنت تكذب!!

ربما مثل ذلك البطل في قصة إحسان عبدالقدوس الذي يتجمل بالكذب ولا يقصد الخداع أو الإساءة لأحد!

ولكن.. كل ما فيك جميل، حتى غرابتك وغربتك، فبماذا تريد أن تتجمل؟!

تطالبني أن نكون أصدقاء؟!

أنا أرجو هذا، وأريد أن ألجأ إليك في أوقات عصيبة، واحتاجك ولا أجدك وقتها.

ولا أدري أي حق لي في محاسبتك أو لومك؟!

ولا أدري.. هل أستطيع أن ابتعد عنك؟!

أريد أن لا أتلهف عليك هكذا.. أريد أن أعوّد نفسي على غيابك.. لا أريد أن أنتظرك.. لا أريد أن يظل قلبي يسيطر على عقلي وتصرفاتي و يلغي كل شيء.

أنا أحتاج إليك.. أنا لا استغنى عنك.. وقد تعوّدت عليك، وأدمنت سماع صوتك، وأحب أن أظل في قلبك.

وهذا ما أتمناه وأخافه!

هل أصدق حدسي وإحساسي.. أم المنطق والظواهر والتصرفات؟!

أرجوك.. لا تأخذك الثورة على ما جاء في بوحي هذا، دون التعمق فيه والاجابة على ما جاء في سطوري.

أريدك أن تسأل نفسك مثلما سألت نفسي رداً على كل شيء، وان كان قد جاء فيها ما يغضبك، فلا تغضب مني.

أفكر فيك كثيراً، وأخافك أيضا.

أخاف يوماً ترحل فيه.. أخاف من موتي عندك!

وإن كان حقا ما كان: نزوة أو وهماً.. فلا تدعني، ولنكن أصدقاء!

(على فكرة.. أنا صديقة وفية جداً وصريحة جداً ومريحة جداً.. هكذا يقولون، وإن كنت لا أصدقهم في الأولى وهذا لايحتاج إلى تفسير)!

* * *

الآن.. بعد أن استعدت هدوئي، و بعد أن عانق سمعي صوتك.. انتهى ما بي من شقاء، و بقيت أنت لي هناء ورضاء.

حالتي هذه البارحة واليوم .. أرجوأن تدوم .. حتى اعتذارك اليوم مرّبسلام ، ولم يثر في نفسي أي إزعاج أوغضب .

لابد أن أقبل ما تريد .. وأن اقنع بما تعطي .. فأنت لست لي ولا لغيري ..

لا أحاسبك على وقت لن تعطيه لي .. لأنه أساسا ليس لك ، وانما هو وقت لطموحك ، ولجنونك ، ولا حق لي أن أقتطع لي وقتاً خاصاً بي وحدي في حياتك .

محكوم أنت دائما بالحياة التي تبنيها وتبنيك .. بالطموح .. بهذا العناد فيك .. على أن تستمر واقفاً وأكثر صهيلا .. حتى وأنت تموت !

رغم هذا كله أنت بيتي وشغلي الشاغل ، وحياتي .. أنت محورها وأملها .. أريدك لي ، وأطمع في الزمن الذي يوحدنا ، وحديث بيننا يطول .

هذا لن يكون .. ولأنه لن يكون ، فلن يتغير شيء .

ستبقى أنت هنا بين الضلوع .

خاطر لا يهدأ ، وأحلام تتجدد ، وأمان لا أعذب ولا أحلى ..

قد أموت .. وقد تباعد بيننا الأيام والظروف ، وتظل ذكرى جميلة لأيام جميلة .. وعمر أكبر من الزمان ، وحضور أقوى من أي مكان !

إن كنت أنا أوغيري من قبل أو بعد لم نكن ما تمنيت وحلمت وتصورت ــ تلك الأنثى التي لم توجد ــ أو أنها وجدت ولم تلتق بها بعد .. فأنت هذا الرجل الذي طالما حلمت به وأردته .

في أحلامي القديمة تخيلتك تسعدني وكذلك تشقيني .

تكونت في أعماقي قديما فكرة : ان الرجل الفنان الطموح الذي دائما في حالة عشق مستمر، قد يسعد الأنثى التي يحب سعادة مضاعفة آلاف المرات عن أي رجل عادي .. وقد يعذبها عدم استقرار عواطفه وتشتته وغرقه في عوالم لا توجد . عذاب مضاعف أيضا آلاف المرات .

تصورت أني سأفهمك وسأحبك وسنبني حياة واحدة معاً !

أتمنى أن تظل في حياتي ظلا ، وسحابة تحمل الغيث لتروي حياتي ولن تنتهي أمانيَّ فيك !

أتمنى أن لا تعود إلى قراءة هذه السطور .. فهي لا تُقرأ إلا مرة واحدة .. وأية أنثى لن تكتبها إلا مرة واحدة .. ولرجل واحد فقط !!

٢

منذ متى وأنا أحاول أن أتحدث معك .. أن أستجمع أفكاري ، وأصوغها كلمات على الورق ؟!

دائما أعجز عن التعبير.. المشكلة تكمن في هذا الصراع المستمر بين ما أحس به نحوك و بين ما يدور في عقلي من أفكار تقلقني .. تخيفني. مشاعر يرفضها عقلي و يستنكرها. حاولت أن أهرب ، ولكن حاجتي إليك ملحّة .. إحساسي بك يفوق كل عذاب وحيرة. هل أنا أنانية .. أم تراني المعذبة ؟!

هناك موانع كبيرة .. سدود تعلو كلما أمعنت في التفكير.

أنت .. ماذا أريد منك ؟!

أريدك صوتاً يسكن سمعي ليل نهار، ولكن .. أنت ماذا تريد ؟!

أريد ألاّ يغيب وجهك عن عيني ، فهل تستطيع ؟!

أريدك حلما متصلا .. أملاً يتجدد ، ومشاعر نشوى بيننا لا تفيق .

قد أسمعك كل يوم إذا أنا أردت ، ولكن دون أن ألاحقك وأحاصرك . أود أن تحبني وتريدني .

أريدك أن تسأل عني متى شئت ، وأن تجدني وقت تحتاجني ، وأن أراك وقتما أشاء .

هذا محال !.. لك حياتك ومسؤولياتك ، فهل إذا كان لي أن أراك مرة كل سنة .. لماذا لا أحدد أنا متى تكون تلك الرؤية ؟!

أخشى أن يضيع كل شيء مني ، حتى هذا القليل ..

أخشى أن ينتهي إحساسك بي يوماً ، وهذا لابد سيكون !

أشتاق إليك .. وشوقي يصل بي إلى حافة الصبر والإرادة .. يجرف أمامه كل شيء .. كل شيء .

أسترجع صوتك في الذكرى .. في الأصداء العائدة إليّ من الأمس .. من اللحظة التي تكمن في وجداني ونبضي ، وقد أسرح .. ولكن في لا شيء .

أتدري كيف أكون .. بدونك ؟!

كأنني تلك التي تركض مسافة طو يلة .. طو يلة ، و يأتيني صوتك .. يقول لي :

هنا قفي .. هنا في نبرات صوتي اهدئي .. ارتاحي .

أرتاح ، وأسعد ، وأنسى ما كنت أريد أن أقول .

أتدري ؟ .. لقد اكتشفت أني لا أعرف كيف أبدأ حديثاً معك ، أو أقيم حواراً .. لأنني قبل أن أحادثك .. أجد عقلي .. يسوط قلبي بجملة لا تتوقف : «لا حق لك بهذا» !

أرجوك صدقني ، فأنا لا أبالغ .. أفكر فيما أفعله ، يحدث هذا رغما عني .. و برغم كل مالك عندي .

أسمع صوتك ، وفي نفس اللحظة أسمع صوتها «هي» .. نحن صديقتان . وخصمان في حبنا لك .

قالت لي الكثير عنك ، أسمعتني كل ما قلت لها من كلمات حب .. كلماتك تحدث القشعريرة والدفء .. كلماتك لا تُنسى !

لو قلت لي كلمة حلوة رقيقة .. رغماً عني ، يشرد خاطري ، وأنبش في ذاكرتي :

ـــ هل قلت هذه الكلمة لواحدة غيري قبلي ، أو ستقولها لواحدة تأتي بعدي ؟!

هنا .. قد يضيع إحساسي بما تقول .

أريد أن أقول لك الكثير .. ملايين الكلمات أحبسها داخلي .. أخشى أن أتفوه بها .

لا أريد لنفسي أن أكون غير مرغوبة . لا أحب أن أفرض مشاعري ورغباتي على الآخرين .. خصوصاً أنت .

لا تقل إن هذا مستحيل .. فقد تكلمني مجاملة مرة ، وهذا أحسه فوراً .

قد تكون مشتاقاً إليّ جداً ، ولكن تمر عليك أيام أكون مجرد خاطر تبسم له شفتاك .

قد تحتاجني في لحظة .. حاجة ملحّة ، وقد تسأل نفسك : ماذا أريد منها ؟!

قد تضعني في مجال مقارنة مع أخريات ، وهذا ما تفعله بينك و بين نفسك .. أكيد .

أحيانا أحس أنك تفرض على نفسك واجبات ، أو لنقل تشعر أنك ملزم بكل «أنثى» أحبتك .. تأسرك مشاعر الآخرين نحوك .

هل تحب أن تبدو دائما في صورة الرجل «الجنتلمان» الرقيق ، المجامل ، المتفهم .. حتى على حساب نفسك ، أم تريد أن يقال عنك «دون جوان» ؟!

اسمح لي أن أكون صريحة معك، وقد أكون مخطئة في تصوراتي :

علاقتك ـ مثلا ـ لا أعرف كيف أفسرها .. أنا مقتنعة، بل مؤمنة .. بأنك شخص غير مخادع على الإطلاق. ومن خلال ما سمعته «منها» وما عرفته عنك .. أتصور أنك تعاني من الشعور بالذنب «تجاهها» .. وهذا شيء مختلف عن الحب.

أرجوك لا تغضب مني، وأنا فيما قلت لا أرمي إلى شيء .. غير أني أحاول شرح ما لم يتضح.

شيء آخر أيضا : انك لا تملك سراً. كل شيء ممكن أن يقال .. هناك حادثة معينة أتصورها :

ـ «أنت لا تفعل ذلك لتؤذي أحداً، وإنما تفيض بحسن النية».

أشعر أحيانا انك مخلوق خيالي، أثيري، حالم .. وفجأة تقول أو تتصرف بما يوحي ان إحساسي خاطىء وأنك واقعي جداً !

فيك تناقض الفنان .. انك الباحث دائماً عن المثل العليا في الحب، في الجمال، في الكون، وتريد تحقيق كل هذا حولك .. ومن أجل ذلك أنت لا تستقر أبداً .. كالرحالة لايطيب لك المقام في زمن واحد، ومكان واحد !

رجل كامل الرجولة تحمل قلب طفل .. ضحكة طفل .. يهمك رأي الآخرين فيك .. تحب أن تكون مثار اهتمام الذين حولك. أنت رجل طيب، وعظيم أيضا، وعنيد !

أنا أريد أن أنام الآن، وسنلتقي في الغد.

* * *

شيء رائع حدث اليوم .. صحوت على صوتك يقول : صباح الفل.

إحساس جميل، وصباح أجمل .. هل أستطيع النوم مرة أخرى ؟!

كنت نشطة جداً، تجولت في أنحاء الدار، أشعلت سيجارة، أحسست برعشة من نسمة باردة، أحكمت «الروب» حولي جيداً. أمي ما زالت نائمة.

عدت لغرفتي، أدرت «البيك آب» على أغنية أحبها، تخيل .. إنني أسمعك وأسمع هذه الموسيقى الرائعة .. موسيقى «قصة حب» !

غفوت .. سعيدة. سعيدة أنا جداً، وأشكرك على ما منحت.

في نومي أراك رقيقاً حنونا ، ولكن دائماً تأخذك خطواتك بعيداً عني ، لماذا .. وفي كل يوم ؟!

أتذكر لقاءنا الأ ول يوم أن أقبلت عليك . نعم أنا التي أقبلت !

أردت لحظتها أن أؤكد لنفسي انه من غير الممكن أن ألامس رجلاً سواك !

لأني كنت أرفض حتى تخيل حدوث هذا .. إلا أنت ، تخيلتك ، وأردت أن أقارن بين إحساس شعرته بمجرد التخيل ، و بين ما سأشعر به فعلا .

أعذرني على هذه الصراحة !

و بصراحة أيضا .. لم يكن كما توقعت ذلك الإقبال منك ، كان ينقصه الإحساس .. فكأنك لم تتوقع أن تكون كذلك .

كنت نادمة لأني تصرفت بحماقة .. ليس لأنه لا يحق لي هذا من أول لقاء ، ولكن لأنني كنت أفكر ، وكنت أرتقب !





عندما كنت في الثالثة عشرة.. أحببت رجلا لم أعرفه جيدا. وكنت أرى فيه ملامح من «أب» ما عرفته من الداخل ابداً، ولكن معرفتي له كانت لا تتعدى قسمات وجهه، وما اهتم بي أيضا.. رغم أنه كان يحرص أن «يدلعني» كلما التقاني!

تقربت من ذلك الرجل.. كان أقصى أحلامي أن يحبني.. أن يهتم بي.. أن يضمني و يقبلني.

وتزوجته.. كنت أشعر معه أني ضعيفة.. اني طفلة، وعندما تأكدت من حبه لي.. وشعرت ذلك من لمسة يده، من عينيه، من كل ما يفعل و يقول.. ذهب كل ما كان له عندي. أصبحت أعامله بطريقة غريبة.. أنكرت نفسي، فقد أصبحت متسلطة ومتمردة عليه.

أنا لاأكرهه، وكذلك لا أحبه!

وانتهى ذلك الحب بالنسبة لي.. حققت أقصى أحلامي، ورميت ذلك الرجل في أتعس أحلامه!

بقي إلى وقت طويل.. معذباً بحبي، ومشدوداً إلى ذكرياته معي!

ومر بحياتي رجل آخر ــ نقيضه في كل شيء ــ كان مرحاً، لطيفا، وطموحا، ومن خلاله أحببت الحياة.

كنا نقرأ معا، نسمع الأغاني معا، نتحدث في الهاتف ساعات، نخرج لنزهة.

كانت له محاولات فنية في ذلك الوقت.. يعزف على العود، و يغني، وأسمعه وانتقده.

قضينا أوقاتا جميلة معا.

ولكن انتهى كل ما بيننا.. عندما حاول أن يأخذ فقط، دون أن يعطي حتى الخُلُق!!

أصر على أن يسمع ردي، وفوراً.

ولكني طلبت أن لانلتقي بضعة أيام.. أعرف فيها ما أشعر به نحوه، وأين منزلته في نفسي؟!

تصور.. إن مجرد «التفكير» هو الدليل على أني لا أحبه!!

ذهب.. ولم أره منذ سنوات طويلة..

وكان «نزار» هو عذابي.. لا أدري كيف وصلت علاقتي به إلى هذا الحد!.. أحببته وتألمت كثيرا.. خلت أنني لا أقدر على الفكاك منه، أو الخلاص من أسر حبه!

الآن شعرت بأني حرة طليقة.. وارتحت.

وأنت؟!

ماذا تفعل بي، وماذا سأفعل أنا؟!

أنا سعيدة بك وقانعة.. ولكن لا أدري هل ستستمر قناعتي هذه؟!

لقد عشت طويلا هكذا.. عشت عمري وأعمار آخرين، وأتمنى أن أعود طفلة لألعب كما أرى الأطفال الآن يفعلون!

أريد أن تحوطني ذراعا أمي، كما تفعل أي «جدّة» مع أحفادها..

أريد للسنين أن تتراجع، لأعيش مع أبي.. أحادثه، أضمه، أقبله، وتجمعنا مائدة طعام واحدة كما يفعل الآباء والأبناء دوما!

كم كنت أتمنى أن تتعدى شفتاي جبين أبي ويده إلى وجنته.. فأسكن لثوان فوق صدره!

كنت أخاف الناس ولا أخالطهم.. حتى أهلي، وأمي كنت أخافها وأكرهها.. فقد كانت قاسية جدا عليّ، واعتبرتني دائما همها الكبير، وحملها الثقيل، والقيد الذي ربطها بهذا البلد وتلك الحياة الأليمة التي عاشتها.

في تلك الأيام البعيدة أحببتك من خلال ما عرفته عنك... هكذا يخيل لي الآن!

هل يكون الزمن كريما معي إلى هذا الحد، ولا أخاف؟!

لقد كان يومي عاديا.. حتى سمعت صوتك في المساء:

ـــ «وحشتيني»!!

عندها.. صار كل شيء جميلا.

في داخلي أشرقت ألف شمس.. وأضاء ألف قمر!

لماذا يكون الفرح حاداً كشفرة سكين.. لماذا يحمل أحيانا ملامح من حزن دفين؟!

كنت سعيدة إلى حد أني كدت أبكي.
قرأت اليوم «لأمل دنقل»:
ـ «كيف ضعفت في نهاية المطاف!
وارتحت في عينيك من عبثي؟
وكل شيء حولنا يملي علينا أن نخاف»؟!

* * *

هل حكيت لك عن «الحمام» الذي يسكن معنا بيتنا؟!

في المطبخ نافذة.. بنى الحمام عشاً له على حافتها، و بين فترة وأخرى أحببت حمامة ترقد بوداعة على بيضة.. أراقبها طو يلا وانتظر معها «الفرخ» وأفرح بطفولية عندما تفقس البيضة وتكون هذه المخلوقات الرقيقة شاغلي.

أنا أحب الطيور.. أعشقها، وأتمنى لو تألفني ولا تخشاني. أكره فكرة حبسها داخل قفص.. أحب أن أراها طليقة، محلقة في السماء، أتمنى لو تأتمنني على حريتها فتأوي إليّ كلما شعرت بحاجة إلى الراحة، أو كلما جاءت لتأكل «الحَبَّ» من على راحة يدي، أو لتجد على نافذتي كو با صغيرا به ماء تحتسيه.

أريد أن تأنس وتطمئن وتدعني ألمس جسمها الضعيف، وأتحسس ريشها الملون الجميل.

حلمت بك ذات مساء.. رأيت فيما يرى النائم: أنني أقف في شرفة أراقب تلك الحديقة الشهيرة «الهايد بارك» كانت بدون زائرين، موحشة. نظرت حولي.. كان كل شيء ساكنا، وكنت أشعر بالوحدة..

الوقت شتاء، والأشجار عارية، وقد علت أغصانها ندف من الثلج..

خيل لي أنني أرى أذرعاً تمتد إلى السماء في ابتهال حار.. أو أنها أيدي غرقى يصارعون الموت و يطلبون الحياة.. فجأة بكت السماء.

دخلت من الشرفة إلى غرفتي خوفاً من البلل.. كان المكان دافئا. تناولت كوب شاي. وأحسست بحرارته تبعث في كفي الدفء. جلست على المقعد. حملقت في السقف.. ولما هاجمتني خواطري تشاغلت عنها بتصفح جريدة. ترددت في الغرفة أصداء صوت أحبه وأعرفه: صوتك، ضحكتك، وغفوت.

ـ « هل حدث وأن حلمت أنك تنام » ؟!

صحوت على يدك تعبث بشعري ، وفرحت بك ، وكأنك كنت مسافراً ، أو كأن بيننا قطيعة . لست أدري بالتحديد . أحطتني بذراعك ، ولامست شفتاك جبيني ، وجلسنا على الأرض معاً !

كنت تكلمني وأنا أتوسد ذراعك . قلت :

ـ « اشتقت إليك .. لن أتركك مرة أخرى أبداً » .

بيدك اللطيفة كنت تمسح على رأسي وظهري ، وأنا أزداد التصاقا بك . وصحوت .. يالتعاستي !

كنت أتمنى لو لم يزعجني شيء .. لو لم يوقظني صوت ، ولكن لا سبيل إلى النوم مرة أخرى ، وإن نمت كيف سأضمن عودة هذا الحلم الجميل مرة أخرى ؟!

هل تذكرتني في هذه الليلة .. هل نادت روحك روحي فعلاً ، أم أني أتوهم ؟!

هل تسمعني الآن : « أحبك » .. هل وصلتك ، وأحسست بها ؟!

لاأدري .. ربما أخذك البحر إلى مكان آخر ، ربما نادت روحك مخلوقاً آخر غيري .

هذه الليلة .. أنا أحسد السماء التي ظللتك ، والقمر الذي رآك ، والبحر الذي كان على مسافة ليست بعيدة عنك وتهادت فوق مياهه نظراتك !

أريد أن أراك ، فقد اشتقت إليك .. أحلم بيوم كامل أقضيه معك .. بكل ثوانيه ، وأحبك وأحب هذا الحب ، وأدعو أن يدوم ولا ينتهي أبداً .

ولكن ..!!

* * *

كل وقت يمر .. تجدني أفكر فيك .

وابتسم .. عندما أتخيل أنك تفكر فيّ . ترى .. هل تفكر فيّ حقا ، مثلما تقول لي أحيانا ، فأشعر أنك ترضى اندفاعاتي إليك ، مثل طفل تلهيه بقطعة حلوى ؟!

لا أحد يفكر فيمن يحب .. مثلي . لا .. أنا لا أحبك ، بل أنا أحياك .. منك يتشكل دمي ونبضي .

فهل تفكر فيّ بهذا « العنف » ؟!

لنفترض .. فماذا تقول لنفسك عني حينما تفكر؟!

المرأة المندفعة نحو الرجل ترضي غروره.. لكنها تفقد اشتياقه اليها وحرارة لقائه بها.

الرجل يحب تلك الأنثى التي تحاول كسر سيطرة الرجل على وجدانها. أعرف أنها لا تستطيع بمجرد أن يستقر رجل ما في داخل قلبها.. لكنها تستطيع أن تكابر بعض الوقت.. أن تناور بكل ما تملكه من أسلحة أنوثتها، ثم.. ترفع الراية البيضاء أمام الرجل الذي تحب، وتنضوي في صدره، وتمتزج بكل حبة عرق تتفصد من هذا الصدر!

أفرح.. عندما أجد من يعرفك ليتحدث عنك.. استدرجهم للحديث عنك، كأنني أردد معنى تلك الصورة الرائعة لأحمد رامي في أغنيته التي كتبها لأم كلثوم:

ــ «ولما اشوف حد يحبك..

يحلالي أجيب سيرتك و ياه»!

إن فرحت لشيء.. أتمنى لو أنك شاركتني تلك الفرحة..

وإن تألمت من شيء أو من أحد، وإن مرضت.. لا أرجو وجود أحد بجانبي سواك!

إن عجزت عن التعبير.. أكتب اسمك فقط على الصفحة البيضاء، فتشع وتضيء!

منذ ليال لم نلتق.. كنت مع الآخرين. أنانية أنا.. كل الناس غيري معك، هم «الآخرون».

أريد أن أكون دنياك، وما عداي هوامش.

انتظرتك اليوم بلهفة.. أتخيل دخولك فجأة. أسمع صوتي يسألك عن أحوالك.

كلما مرّت الدقائق.. ازداد وجيب قلبي.

كنت هنا البارحة.. جئت الينا، لكنك لا تدري أني كنت مريضة.. لم يغمض لي جفن حتى الرابعة صباحا. لم تسأل. الرجل أقسى.. بلا شك!

قد أسافر.. أنا لا أريد هذا السفر، ولكنه أمر لا مفر منه.

مجرد الإحساس بأني سأكون بعيدة.. بيني و بينك بحر ومسافات.. ذلك عذاب.

يرهقني أن أظل انتظر اليوم الذي سأعود فيه، واللحظة التي يأتيني صوتك فيها

وهو يقول : « أهلا » !

ــ « أسألك : قل لي .. هل تحبني » ؟!

أحيانا .. أكون واثقة جداً إلى حد الغرور بك .

لا قيمة لشيء أبداً دونك .. ولا للوقت ، ولا للزمن .

أنت اللحظة الأجمل .. التي تساوي عمري كله .

فهل سأراك في السفر .. كيف ؟!

٤

في هذا المساء .. سبقني الحزن ، واحتل فراشي .. وأبى القلق أن يفارقني .. لماذا حمل الليل لي معه هذا الزائر البغيض ؟!

كنت أمنّي النفس في وحدتها بلقاء معك .. طويل .

ـ أين أنت الآن .. أين روحك ، تفك من حولي حصار الأحزان ؟!

كنا عندما نلتقي .. أتمنى أن تطول غفوة الشمس أياما ، ليكون طيفك أنيسي ورفيقي كل الساعات .

أنا في هذه الليلة لا أجدك ..

أغمض عيني مرات ، ولا تأتي .. كأنك « جودو » الذي يأتي ولا يأتي !!

أفكر في الموت .. ليس تفكير الخائف منه ، ولا تفكير من يستعجله ، بل لأنني سأموت عندما أفقدك .. أحس أنني لن أمتلك ساعاتك وزمنك .. ولكني أحاول أن أسرق ذلك كله .. فلا بد أن أموت !

أفكر فيما مضى .. وكيف عشت تلك السنين ؟!

أخطائي كثيرة ، فهل يُغفر لي ؟!

أتمنى لو عادت الحياة إلى الأموات مؤقتا .. أسألهم لأعرف : بماذا شعروا ، ماذا رأوا .. إلى أين سارت أرواحهم ، وهل حقا أنها تهيم حولنا ، وتشعر بنا ولا نراها ؟!

أريد أن تمر عشر سنوات في لحظة .. وأراقب أحداثها ، وما سيجري فيها .

أريد أن أفقد ذاكرتي أياما .. فهل في هذه الأمنية راحة بالفعل ، أم أن الإنسان بلا ذاكرة .. بلا ذكريات ، هو لا شيء ؟!

أتمنى أن أكون زهرة تمنح الشذى والفرح ..

أتمنى أن أكون صخرة ليوم .. لأعرف صلابة الإحساس وعدميته .

أريد أن أبكي عندما أحزن ، أو أصدم فيمن حولي .. فتخونني العبرات وتتجمد ولا تخنقني !

أتساءل حينما أكون وحدي انتظر شيئا منك يصلني : هاتفك .. صوتك .. قامتك الفارعة .. وميض عينيك النافذ إلى قلبي .. أتساءل :

ـ هل تستاء الزهور وتتألم حين نقطفها .. هل تشعر بنا الحصاة حين نطأها ؟!

لا أدري.. هل كنت زهرة، وأنت التي استطعت أن تقطفني، فأشعرتني بالضياع.. أم أنا الزهرة التي ما زالت كل صباح تتفتح على وجهك وأنت تعبر، ولا تتوقف لتلمسني.. أو تشمني، أو حتى تقطفني وتدهسني.. لايهمني ذلك، وانما المهم أن أكون لك وحدك.. زهرتك المفضلة.. رائحة يومك الجديد.. عبق أيامك وعطرها المفضل.

لكنك تتجول على ألوان عديدة من الزهور.. تعبر من أمامها، تمسح بأصابعك على بعضها، وتقطف بعضها الآخر، وتتجاهل البعض، كأنك شعاع شمس تطوف كملك على رعيتك الأزهار.. تمنح الحياة، وتكون السبب في ذبولها!

يكون الزمن ملكي وحدي.. حين أكون معك. الدنيا بأسرها، بكل ما فيها لي، وتضمني السعادة اليها وتغمرني.

إحساس غريب: أريد أن أبقى، وأريد أن أهرب.

بقدر احتياجي لوجودك.. بنفس القدر انتظر ابتعادك عني. حتى السحرة لايقدرون على هذا الأخذ الذي لايعيد!

أنا بين نارين: نار الرجاء، ونار اليأس. قد تدرك ما أعني بروحك وإحساسك..

أين هم من هذا الإحساس، وكيف لأرواحهم أن تدرك؟!

إنهم ينظرون إليّ، و يقيمون بعقولهم.

وما زلت أتدفق.. أريد أن لا أتوقف عن الكتابة إليك.

كل سطر أكتبه لك هوخفقتي، ونبضي.. أصدق ما أحتفظ به لأغلى الناس، ولو خيرت بين أن أطوف العالم بدعوة مترفة **مرفهه**ــ والرحلات أجمل ما أهوى وأحب كما تعلمــ و بين أن أجلس لأكتب لك.. فلابد أن أختار الكتابة لك.. لأنني لحظتها أشعر بك في مسامي وعقلي ووجداني. الكتابة لك علاقة حميمة بين نفسي وصدقها وحبها ورغدها.

* * *

أعرف أن الكثير مما أكتبه لك لن يصلك.. ولكنك ستحس به وتتوحاه..

ولكني تعبت الآن. بلغت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل.

الآن.. أنا أحبك أكثر. أريد أن أقبّل عينيك، و باطن كفك.. وأنام!

كما حلمت بك من قديم، وأنا أتمثلك الرجل الذي أريد.. أحلم بك الآن: الرجل الذي يريد هو!

فهل تلتقي الإرادتان، ونكون روحين.. تشعر كل منهما بالأخرى وتلتحم؟!

أريد أن أمتلك، بل وأصادر كل شيء عنك لي وحدي: طفولتك.. حياتك.. كل ما يسعدك، وأن أعرف ما تحب وتكره.. ما يزعجك و يؤلمك.. ما تتمنى.

أحُس بك الآن طائر النورس.. تحط على كتفي، تر بت عليه.. تمسح شعري، وتتحول إلى رجل هو أنت.. ترفعني عن الأ رض إلى عالم أثيري.. تلمسني وتملأني نشوة. ثم يلفني غيم رمادي يحجب عني هذه الرؤى.. يذّكرني أنك هناك دوما، وأنني هنا قسرا.. يشدني إلى الشوق والحنين فأمتثل لهما.. يفعلان بي ما لا أطيق، فأرتاح فيه.. لأنه منك وإليك!

خذني إليك أتوسد ذراعك.. أتمنى لو يتضاءل حجمي وأصغر، أصغر.. حتى أدخل في وريدك وأسكن كدمك.. أكون معك أينما ذهبت.. أبقى فيك حيثما كنت!

* * *

غدا سأرحل إلى باريس.

سأحمل معي زهرة القرنفل التي احتفظت بها من باقة الزهر.. تلك التي حملتها لي إلى المستشفى يوم حادث السيارة اللعين.. وصوتك، وطيفك، وشوقي وأحلامي.. كلها تملأ نفسي.

فلا تنساني في لحظة سعادتك.

أعرف أنه ليس لك لحظة سعادة.. كأن الفرح أقنعة في لحظاتك وأيامك. لكن سعادتك الحقيقية لحظة أن تكتشف، وتتوحد مع الإنسان ــ الفكرة.

رغم ذلك.. لا تنساني، أشكو لي عندما يضايقك الملل، أو تحاصرك المشاكل المادية.

وفي كل صباح من اصباحاتك التي تبدأ عندك بعد الواحدة في منتصف الليل، وقبل أن تنام.. ابعث لي بتحيتك، ستصلني.. انني واثقة انك تحمل لي في نفسك الكثير.

أعرف أن الزمن لن يعطيني منك سوى هذه الخطوات فقط .. فقط !

فهل ستنتظرني في قمة «ايفل» .. مع رسالتي القادمة ؟!

أعرف انك لا تنتظر شيئا .. كما قلت لي مرة .. أتذكر؟!

ـ يومها قلت لي : «لقد أصبحت طريقا مسدوداً ، لا يوصل إلى شيء ، ولا يصل بالآخرين إلى دروب .. انني لم أعد انتظر شيئا مما كنت أحلم به في حياتي ليغيرها ، ويحقق لي فيها أحلامي» !

ولكني أنا أنتظرك كل مساء .. أجدك في كل خفقة تهب الحياة لي . هذا هو الفارق بيننا .

لقد كنت أنا جزءاً من حلمك ..

أما أنت .. فما زلت وطن أحلامي وحدودها .. والإنسان لا يبدل الوطن .. يبقى له وطن واحد !!





الفصل الثاني





١

هدأت على صدري «زهرة القرنفل» تلك التي حملتها معي إلى باريس .. إنها تذكارك ، وعبقك ، وآخر ما منحته لي في زمن ابتسامتك الصافية التي خصصتني بها وحدي في بداية ذلك المساء .. حينما كنت أرقد فوق السرير الأبيض بالمستشفى !

كنت قد وصلت باريس مع بداية هذا المساء ، واختار لي الفندق هذه الغرفة المطلة على أعظم شارع باريسي : «الشانزلزيه» .

أزحت الستارة ، ورأيت من هذا العلو الشاهق كل الأشياء الهابطة ، والقزمة ، والراكضة ، والمزدحمة ، عالم عجيب أراه تحت ناظري ، ولا أستمتع به بمثل استمتاع الكثير من أمثالي الوافدين إلى باريس للفسحة ، أو للضياع ، أو للاختيار .

لست أدري .. لِمَ هذه الدمعة الباردة التي طفرت من عيني وانزلقت على خدي ؟!

ترى .. هل تعبر الدموع أحياناً عن الامنيات ، أم انها في مثل وقفتي هذه تعبر عن أقسى وحدة أعايشها وأنت بعيد عني ؟!

شيء غريب .. فلقد فررت منك ، فاكتشفت أنك تجذّرت في أعماقي .. أحس بك وشماً وعمقا يحفر ضلوعي ولا أقدر أن أنوح .. ولمن ؟!

هذا هو الغريب .. إني أنوح من أجلك إليك .. لا أبوح لأحد عنك ، ولكني أهرع إلى ورقي وأبادر فأكتب إليك نوحي و بوحي وتناقضاتي معك !

لا تندهش .. لقد طبعت وشمك في أعصابي وأفكاري وخفقي .. فتصور !

وعندما أقفيت ، وجعلت مطار «شارل ديجول» خلفي .. تأخذني العربة إلى داخل مدينة السحر والنور كما يسمونها .. كانت الخواطر تنثال . كنت شاردة ، لم أشاهد منظراً واحداً على امتداد الطريق من المطار إلى الفندق ، عفواً .. بل كان منظر واحد فقط .. كان وجهك وقامتك التي تحتوي ظلي دائماً كلما وقفت أمامك .

وتساءلت : هل أنا أفر منك .. أم أركض بهذا السفر المتواصل إلى لقائك

الغامر؟!

تغرّبت كثيراً.. وأكثر غربتي عندما لا أراك، ولا أسمع صوتك. وكنت أعتقد في بعض الوقت أن بقائي في البلد معك، أو هروبي إلى الخارج بعيداً عنك.. هو في واقع الأمر سيان.. ففي كلا الحالتين لا أراك، فأنا ـ إذن ـ في غربة!

لذلك.. أحببت الترحال.. أصبح السفر هاجسي وعذابي، وأتمنى أن يخلصني منك، فإذا هو يزيدني التصاقاً بك، وحميمية لك!

يا عذابي أنت: ألا تساعدني أن أمحو هذا الوشم مني؟!

إنني أمد يدي نحو «زهرة القرنفل» وأتحسس أطرافها بأناملي برفق. رغم أنها ذبلت، وتكاد أن تجف. أحملها من فوق صدري. وأضعها على شفتي، وأغمض عيني ثانية، ودوماً كلما قربتها من شفتي.. أحس أنني أقبّلك.

شعرت بها على صدري، وكأنها رأسك.. فابتسمت!

يالهذا الرأس ـ رأسك ـ الذي بقيت أحلم به، فهو: طفلي الذي أوسده وأهدهده، وأحلم به سكني ووطني الذي أختبىء داخله وأجوس في أفكاره التي تعذبني وتتحول إلى عذوبة في عمري!

فهل تسمح لي الآن أن أغمض عيني لأرتاح منك قليلا.. أبعدك عني، وحتى أبعد «زهرة القرنفل» هذه عن صدري، وأضعها فوق «الكوميدينو» وأغفو؟!

إنني متعبة من سفر الرحلة، ومن رحلة سفر الوجدان معك طوال هذا الزمن الذي اكتشفتك فيه.. بينما أبقى في حياتك: التعارف، أو العلاقة، أو الراحة المؤقتة؟!

ولكن «زهرة القرنفل» لا تدعني أغفو.. إنها سفيرتك عندي، تلاحقني بعبقها المستمد من عطرك ومن عرقك.. أشم رائحة عرقك في «زهرة القرنفل».. حتى وهي جافة!

إنك تبتسم الآن.

أعرف وجهك في هذه اللحظة.. لكني ما زلت أصر أنك لا تطيق العبث، ولا تميل إلى المخادعة. حبك عنيف وصراحتك عنيفة، ولقد أحببت فيك هذا العنف الذي لا يدمي ولا يجرح، ولكنه يرهق كثيراً.

أتذّكر الآن ميلاد هذه الزهرة.. كأن يدك التي حملتها إليّ ذات يوم كانت أرضها، وتربة جذورها، ومطرها. كانت متفتحة، تفوح شذى.

* * *

ذلك المساء استعيده.. إلى درجة أنني أحس به ــمازال يسري في عروقي كالخلجة.. يهزني، يقشعرني.

كنت أرقد على السرير الأبيض في المستشفى الخاص. مضت أيام ثلاثة على استضافة سرير المستشفى لجسدي. يدي في داخل لفافة بيضاء متراكمة عليها. وساقي اليسرى معلقة عند مؤخرة السرير.

هذا هو اليوم الثالث ــإذنــ على مرور الحادث الذي وقع لسيارتي.

في مساء اليوم ذاك.. ركبت عربتي، وقلت للسائق الهندي: اتجه إلى البحر!

كنت قد طلبتك بالهاتف عدة مرات ولم أجدك.. عشرة أيام مرت دون أن أراك، أو حتى دون أن أسمع صوتك، ورغم أنني أعرف مزاجيتك، وتغليفها بأعذار مشاغلك، لكنني لم أيأس من العثور عليك.. حتى ألقيت القبض على صوتك. كنت فرحة بهذا العثور، كأنني عطشى في فلاة، وظهر أمامي نبع صاف. ولم تدم فرحتي أكثر من ثوان.. صدمني صوتك بعدها بنبرة جافة.. يقول لي:

ــعفواً.. إنني مشغول. عندي اجتماع. سأتصل بك فيما بعد!

أعرف الــ «فيما بعد» هذه!.. أحياناً تستمر شهراً، أولا تنتهي حتى أنهيها أنا بالاتصال!

تعرف كلبي الصغير الرمادي.. أهرع إليه دائما كلما رميتني بإهمالك!

عفوك.. ليس في ذهني ما يمكن ربطه بمقولة الشعراء عن وفاء الكلاب، وجحود الإنسان.

لا أقصد أن أفضله عليك، ولكني أحب هذا الكلب بعدك أنت مباشرة. لو فقدتك أصبح مثل هذا الكلب: مدللة، نظيفة، وفية.. ولكني أموت قهراً. ولو فقدت هذا الكلب أشعر أنني فقدت الصديق والحارس والأنيس والخليل!

أذكر ما قلته لي مرة: «الكلاب الوفية تموت بسرعة.. لأنها لا تحتمل قسوة عاطفة الإنسان»!

ذلك المساء.. ناديت كلبي، بعد أن أحسست بالاختناق إثر مكالمتك. شكوتك عليه. وضعته في حجري وبكيت. كان يلعق يدي ويهمهم، ويسكن، وذيله يواصل الحركة.

قد تصف هذه الصورة، فتقول عنها: إنها ترف القصور.. لكنها في الحقيقة تبدو،

وكأنها تلف السأم!

ارتديت ملابسي، وناديت السائق الهندي، وركبت عربتي في اتجاه البحر.

أرتاح أمام البحر.. أسكن أمام ارتداد الموج، ونقائه.. هناك بقيت ساعة أو أكثر. حادثتك.. استعدت بعض كلماتك عندما تكون «رايقا».. بل تناهت إلى سمعي بعض ضحكاتك النزقة. أنت أحيانا تضحك بجنون، وأجدني في هذه الضحكات مندهشة وحائرة. كنت تقول لي:

ـ إنني أطرد أحزاني وهمومي بهذا الصخب.. لا تظني أنني سعيد. الضحك لا يدل على السعادة. بل هو في الغالب يعني القفز فوق الآلام، والهروب من الهموم.

كل ما تقوله أصدقه، وأناقشه مع نفسي، وأتعاطف معك فيه.. حتى لو خالفتك الرأي.

هذا لا يعني انقيادي التام لك، وانضوائي تحت إمرتك.. بل هو محاولة الدخول إلى أعماقك، والامتزاج بك.

وخيم الليل على الكون.. أصبح بياض الموج مثل فوانيس مضيئة في عرض البحر. وشعرت بفيض من الراحة. وفي الطريق وأنا داخل العربة فكرت في صديقتي «سعاد».. ليتني أمر ببيتها وأجلس معها بعض الوقت. ولكني ما لبثت أن تخليت عن هذه الفكرة.. تذكرت أولادها ومسؤوليتها في بيتها.. لم تعد «سعاد» تلك الفتاة المرحة «العفريتة» التي تتقافز وتروي النكات.. منذ أن تزوجت، خيل إليّ أنها ترمدت، أو «همدت».

ـ سألتها ذات يوم: هل صحيح ان الزواج يقتل الحب؟!

نظرت إليّ بسخرية، وأجابت بنبرة الفيلسوف قائلة: يقتل حباً، و يلد حباً أكبر.. هو حب الضنا.. حب ماتمنحه حشاشتك!

ثم استدركت، كأنها أحست بارتكابها خطأ، فقالت:

ـ لم أقصد يا «ليلى».. أنت لم تنجبي من زوجك.. أوه، أقصد من الذي هجرتيه، ياشيخة، حتى بيقولوا ان الضنا عناء. كده إنت أحسن، **مرتاحة** و«**مروقة**»وسيدة نفسك!

لم أتأثر بما قالته صديقتي «سعاد» يومها.. فقد كنت أحمد الله أن جعلني عاقراً لئلا أنجب من «حسين» خلفة تربطني به، وتعطل هذه الحرية التي استعدتها مع

وقف التنفيذ!

صدقني انني لا أكذب.. بل انني صادقة، فأنا لم أحب «حسين»، وان كنت قد حاولت في بداية ارتباطنا أن أحبه.. حاولت مراراً و بإصرار، وفشلت، بل وعجزت.

وتلك حكاية سأرويها.

الآن.. غيرت رأيي، وليس عندي حماس لزيارة «سعاد».. فلا بد أن أرجع إلى البيت.

هناك في غرفتي عالمي الذي أضنّ بأباحته على كثير، ولكني تمنيت لو منحته لك كل العمر.

وفي طريق العودة.. كانت المفاجأة!

لقد خرجت سيارة ضخمة من نوع «التريلا» حاملة البضائع.. جاء خروجها من شارع فرعي، ولابد أن السائق الهندي كان «سارحا» يفكر في أهله وغربته، ولم يستطع أن يتلافى هذه الصخرة التي ارتطمت بالعربة.

لا أدرى كيف لم أمت بعد أن شاهدت حطام السيارة. مات السائق الهندي، وكل ما أتذكره في تلك اللحظة البشعة أنني صرخت، ولم أفق إلا في اليوم التالي فوق السرير الأبيض، و يدي ملفوفة، وساقي معلقة مثبتة إلى أعلى.

ولكن آلامي، وكل الرعب الذي ملأني قد تلاشى عندما رأيتك.

كنت ــ بعد أن أفقت ــ أفتش عنك.. أسأل كل من جاءني بنظرات صامتة.

أسأل الطبيب، والممرضات عنك، وتطفر الدموع من عيني.. و يسألونني: مم تتألمين؟!

وكنت أهمس في داخلي: أتألم منك أنت!

لاأتمنى أن تكون ألمي.. وكيف تكون ألمي وأنت الذي تزرع في صدري المزيد من الحب والتفاؤل؟!

حتى قرع الباب في الليلة الثالثة، وأطل وجهك.. و بين أصابعك هذه الزهرة: «زهرة القرنفل» و بأسلوبك قلت مبتسما:

ــ فكرت أن أحمل لك باقة كبيرة من الورود والأزهار. لم أجد باقة أملأ بها هذه الغرفة، وأراك في داخلها زهرة الزهرات. فجئت إليك بهذه الزهرة وحدها، لأنك

تحبين «زهرة القرنفل» .. تقولين عنها: إنها نداء الحب!

فرحت بهذه الزهرة تلك الليلة. لم أنم. تلاشت أوجاعي.. جفت دموعي، وأينعت ابتسامات ملونة كجناح فراشة على شفتي، ومن عيني، وفي صدري!

يا إلهي.. هكذا أنت تفعل بي كل هذا التحول؟!

وبقيت الزهرة بين أصابعي ترعاها. لم أسمح لأحد أن يلمسها. لم أتركها وحدها، بل صرت آخذها إلى كل مكان، ولو جفت، فانها ستبقى حديقة عمري.

* * *

هكذا أنت ياسيدي، وحلمي..

ليست لك أشياء.. بل شيء واحد تتفرع منه كل مباهج الحياة وابتساماتها.

لحظة.. التليفون يرن!

....

هل تعرف؟!

إنهم يستعجلونني لأرتدي ملابسي، ونذهب إلى أعماق الليل.. نجوب «الشانزلزيه»، ونتسكع أمام وداخل المحلات التي تعرض الملابس والموضات.

فجأة.. لمع في ذهني خاطر. قلت لصديقاتي وأختي:

ــ أريد أن نذهب إلى «الحي اللاتيني»!

ــ قالوا بصوت واحد: الآن.. مؤكد انه لن يكون هناك!

كن يغمزن عليك. لكني لم أغضب. فرحت انهن جئن بسيرتك.

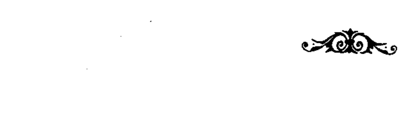
تمسكت برأيي، وذهبنا جميعا إلى هناك.

ورغم طول المسافة.. فإنني لم أشعر بها، لقد كنت بجانبي. أنظر إليك، وأحادثك. وأسألك عن قصة الدكتور «سهيل إدريس» الحي اللاتيني، التي حدثتني مرة عن إعجابك بها، وانها شدتك لتذهب إلى هناك. وأسألك عن «عصفور من الشرق» وصورة «توفيق الحكيم» القديمة الرائعة. ورأيك في «توفيق الحكيم» بعد كتابه: عودة الوعي وفقدانه!!

أحس أنك تملأني.. ترويني، تأخذ رأسي وتفلحه وتشذّبه كأرض بور، ثم تحوله إلى عشرات الفدادين التي تطرح القطن طويل التيلة!

أحس أن كل كلمة تقولها لي: وعي، وكل فكرة تناقشها معي: قضية، وكل عبارة ترددها في مسمعي: ملحمة.

ووصلنا إلى الحي اللاتيني.. وكانت ليلة!



٢

أنت ياسيدي وحلمي ..

تواصل غزواتك بين أضلعي .. تبني داخلها حصونك وقلاعك، وتأمرني من داخلي هذا، فأطيعك!

كم أنت ديكتاتور ومتسلط .. برغم أنني أراك بوضوح و بشمول كلما التقينا وجها لوجه .. لحظتها أراك ضعيفاً، مستسلما .. ترضي غروري، فتشعرني أنني أحتلّك، وأنك مستعمرتي .. وتشعرني أنني قد نجحت في طرد سكان نفسك، وإجلاء العابرين .. وأنني أتربع في كل مساحة صدرك : قوة، وتأثيراً وامتلاكاً!

نعم .. كثيراً ما فكرت في الاستحواذ عليك، في امتلاكك حتى النخاع، وعندي ثقة بنفسي!

لكني ما ألبث أن أتراجع عن هذه الطبيعة التي تسكن كل أنثى .. تحب رجلا وتهيم به .

أتراجع خوفاً منك، وخوفا عليك!

أستعيد كلماتك عندما كنت أحاورك عن الامتلاك والحب، والشعرة النحيلة التي تبدو هي الفارق بينهما .. فكنت تقول لي :

ــ أنت كيان .. وما حولك، وما وراءك لا أكثر من ظل!

ــ أرد عليك، قائلة : ولكنك لست حولي ولا ورائي .. بل أنت تُسدد إلى قلبي كرمح لامع .. استقر في الغور، فإن نزعته من صدري نزفت حتى الموت، وإن أبقيته لازمتني آلامه التي لا تنتهي!

ــ وكنت تقول لي : من أجل ذلك تفكرين أن تضاعفي آلامك مدى العمر .. بمزيد من إيغال الرمح في صدرك!

تلك كانت أيام جميلة .. وإن تناثر في جنباتها لون من الحوار العاطفي «الضاري» بيني و بينك .. ولكني كنت أجدك كثيراً، وترد عليَّ، و يطول بنا الوقت ونحن نتكلم حتى نكاد ننسى الوقت نفسه، وننسى كل من في عالمنا .

الآن .. أستعيد أصداء صوتك عندما كنت مع أختي وصديقاتي ندخل إلى مزاريب وأزقة «الحي اللاتيني» في باريس . المقاهي منتشرة، والسحنات مألوفة .. لتردد العرب على هذا الحي، والزحام يغمرنا حتى نكاد أن نضيع فيه ونتباعد .

وجاءت فكرة طرحتها إحدى صديقاتي : ما رأيكن في الجلوس أمام طاولة في ذلك المقهى ؟!

ــ قالت اختي : هل جننت .. كيف نجلس في مقهى ؟!

وقهقهت أصوات صديقاتي لهذا السؤال المتعجب ، وقالت واحدة منهن :

ــ لماذا .. هل نسيت نفسك أين نحن .. أم ما زلت تعتقدين أننا في شارع عربي ، أو في حي شعبي هناك ؟!.. نحن في باريس !

ــ قلت بلا تركيز: ولكننا لم نتعود .. صحيح ، لو رآنا أحد من بلدنا على الأقل ؟!

ــ قالت واحدة منهن : هكذا نحن كالنعامة .. هناك رجال ، وهنا رجال .

ــ قلت : ولكنه الالتزام بآداب رُبينا عليها !

ــ قالت : ياشيخة .. ياعُقَد !.. تعالوا بس نجلس ونتفرج .. والعالم صندوق ياعالم !

ولمحتك فجأة .. هناك ، تجلس أمام طاولة لا تبعد عن طاولتنا ، وأمامك فتاة شقراء جميلة !

تدافع الدم إلى رأسي .. شعرت بالغليان والغيظ . أعرف قدرتك على المرح والعبث والجنون .

لكزت أختي في خاصرتها ، وأشرت نحوك بطرف عيني ، حدقت ، وارتسم الذهول على وجهها .،

ثم ما لبثت أن قهقهت بصوت مرتفع .. جعل صديقاتي يلتفتن نحوها باستغراب . قالت وما زالت تضحك :

ــ عندنا مثل شعبي يقول « اللي في بال أم الخير .. تحلم به طول الليل » !

ــ قلت مغتاظة : ايه أم الخير دي ؟.. بلاش سخرية !

ــ قالت أختي : تصوروا .. هذه الانسانة الجميلة الرزينة الهادئة ، اللي اسمها أختي « ليلى » .. لما تشوف وجه راجل ، على طول تشوف وجه الحبيب الغائب !

ــ قلت أزجرها : و بعدين في قلة الأدب دي ؟!

تطلّع البنات إلى الجالس مع الشقراء .. كلهن يعرفنك من صورك .. قلن لي : معك حق .. الخالق الناطق .. انما ليس هو، لعله ابن عمه .. ما رأيك ، نتسلى ؟!

لم أعرف أية فكرة طرأت في رؤوسهن السهرانة . تهامسن ، وقامت واحدة منهن بثبات ، وتخطرت في مشيتها ، حتى وقفت أمام الرجل والفتاة التي معه . تحدثت إليه ، وعادت بعد دقيقتين !

المجنونة ، المغامرة .. قالت لنا :

ـــ قلت له حين وقفت أمامه : أنت عربي بلا شك .. ها ؟ فأجاب مندهشا لجرأتي : نعم .. هل أستطيع خدمتك ؟ فقلت له : بل خدمة هذا القطيع ، وأشرت إليكن ، وأردفت أقول له : اننا نزور باريس للمرة الأولى ، كذبت عليه ، وحبذا لو جلست معنا بعض الوقت لنأخذ فكرة عنها منك !

ـــ وماذا قال لك ؟!

ـــ أبداً .. ابتسم بخبث ، وقال : بأمرك .. ولكن ليس الآن ، ففي الغد نلتقي تحت برج إيفل في الساعة الثانية عشرة ظهراً .

قلت لصديقتي : ولكن هذا الأسلوب منحرف !

وجم صديقاتي ، وقمت أمشي ، فتبعنني . قالت المجنونة المغامرة : إننا نمزح ونتسلى !

ـــ قلت : بل أنت تصرفت عبثاً .

ـــ قالت : وقدومنا إلى باريس وحدنا .. أليس عبثا ؟!

ـــ قلت : لقد جئت وأختي يصحبنا ابن أخي لعلاجه .

ـــ قالت : وكل واحدة ياحبيبتي معها «مَحْرم» .. بس المحرم مشغول في الشانزلزيه ، و..

ـــ وأردفت بحدة : إيه ياشيخة ؟!

ـــ قلت لها : هناك فرق بين تفسيرك ومعنى حدود التصرف وعقلانيته !

* * *

واستلقيت على سريري في الفندق .. أحدق في السقف ، وأطرد وراء العديد من الصور .

ـــ قالت لي أختي : لقد قسوت على صديقتنا .. إنها مرحة لا أكثر .

ـــ قلت : بل إنها لعوب ، وستورطنا معها ، و بصراحة .. أفكارها لا تعجبني .. إنها تفلسف حرية المرأة بأنها المساواة الكاملة مع الرجل ، وهذه التجربة فشلت حتى

في الغرب، وتنازل عنها فلاسفتها، أو منظّريها!

جلست أختي في نهاية سريري، وهي تحدق في وجهي وتبتسم، ثم قالت:

ـ ما شاء الله.. من فين كل الثقافة دي والعبارات؟! إيه ياختي.. «منظّرين».. يعني إيه، ومين اللي..؟!

ـ قاطعتها قائلة: من فضلك.. لست جاهلة، إنني لم أكمل تعليمي، صحيح.. ولكني قرأت كثيراً، وثقفت نفسي، وأعتقد أن هذا عيبكم يابنات هذا الجيل، القراءة عندكن هي مجلات الموضة والسينما!

ـ قالت أختي: غلط.. البنات يقرأن بجدية و بإصرار، بما يجعلهن يتفوقن على الشباب حتى في المعلومات العامة.. الشباب الأولاد اتجهوا إلى الكرة.. تقولي هِيَّا المستقبل؟!

ـ نظرت إليها بطرف عيني وابتسمت أقول: والبنات أصبحن اليوم يعرفن اسم حارس هذا الفريق، والباك، و..

ـ قاطعتني: حتى أنت تعرفين، عيني عليك باردة. زعلانة ليه.. ما هوما عندنا غير الكرة، أو الفيديو.. عندك (حقل) تاني نزرع فيه عقولنا؟!

لم أجبها، فقد بدأت بطريقتها تسخر، وقلت لها:

ـ ماني فايقة لك.. روحي اقرئي، ولا نامي، ولاّ شوفي الكم «قناة» في تلفزيون باريس يمكن تلقطي لك كلمة فرنساوي تتعلميها!

قامت تزفر، وتطوح بذراعيها، وتهمهم: يا ربي.. ملل في كل مكان.. ليه المرأة بس؟!

ابتسمت.. فقد كنت مثلها، ولكني فيما يبدو قد سرقني العمر بعض الشيء.. بلغت إلى المرحلة التي يسمونها الرزانة. أحيانا أسأم أيضا من هذه الرزانة، وأضيق بالفراغ من حولي. ليتني أقدر أن أعمل، ولكن.. كيف؟!

كيف أعمل وأسرتي غنية، وتخاف على قيمتها الاجتماعية، ومركزها!!

لقد أعطانا القيمة هذه كلها والدي يرحمه الله.. فهو الذي جمع هذه الثروة، وأنجب كل هؤلاء الأولاد والبنات.. الذكور خمسة رجال، وإخوتي الإناث ثلاث بنات.

لو قلت لواحد من اخوتي الرجال الآن: أريد أن أعمل، فلابد أن يندهش،

وسيعارض هذه الفكرة التي يصفها بالجنون! وسيقولون لي:

ـ كيف تعملين، وأنت ابنة «سالم عبدالغفار الحامد».. الوجيه الذي كان ملء السمع والبصر، ومن أوائل من كانت لهم ثروة بمعنى الغنى والجاه والنفوذ؟!

لو قلت لأختي التي تكبرني: أريد أن أكون موظفة!.. فلابد أن تقشع شفتيها الغليظتين عن سنها المكسور، وتقول لي ساخرة:

ـ موظفة!!.. ليه؟ علشان يقولوا: بيت «عبدالغفار الحامد» الكبير، اللي كان يرش الفلوس على الناس سقط في الفقر والحاجة.. إيه اللي ناقصك؟!

يومها بكيت، وأنا أتصور لو نقلت رغبتي هذه إلى أسرتي. ولعلهم لا يقسون عليّ بالكلام. ولكنهم بلا شك سيمزجون نظراتهم إليّ بالشفقة والحزن، ويربطون ذلك بظروفي النفسية بعد أن هجرت زوجي وطلبت الطلاق، ورفض للإمعان في إذلالي!

كانت المرأة في عصر جدتي وحتى أمي.. لا تعرف ماذا تعني كلمة «الفراغ». فهي تقوم بأعمال البيت وحدها.. تكنس وتطبخ وتغسل حتى سلالم البيت الكبير المكون من عدة طوابق، وتعتبر أن هذه هي حياتها الحقيقية، ولعلها لا تخرج من بلدها حتى تموت فلا تعرف مدينة أخرى في بلدها.

الآن.. نحن في باريس!.. هيه، وبيوتنا تضم أكثر من خادمة وربما مربية وسائق، وكل وسائل الحضارة والترفيه.. ومع ذلك، فالملل يتكثف.. فهو ـ إذن ـ بسبب نفساني!

قلت ذلك مرة لأختي المحتجة دائماً، ولكنها أجابتني ساخرة:

ـ يمكن.. لأن المرأة أصبحت متعلمة، والتعليم يزيد الطموح!

واختالت أمامي صورة والدي يرحمه الله، بل كأنني أراه بقامته الفارعة، وشخصيته القوية، وصوته الأجش في غير ما قسوة.

طفرت دمعة من عيني.. واختلطت ملامح وجهك بوجه أبي. صرخت فجأة:

ـ لا.. لا، لا أريدك أبي، أرجوك!

ركضت أختي إليّ، وقد خلعها صوتي من فوق سرير غرفتها المجاورة. وقفت بجانب سريري فزعة، ترتعش:

ـ ماذا بك.. هل نمت ورأيت حلماً مفزعاً؟!

تطلعت إلى وجهها المرتاع من أجلي. أمسكت بيدها. هدأت، قلت لها:

ــ بل المفزع في حياتنا اليوم هي أحلام اليقظة ياحبيبتي !

ــ قالت : لم أفهم ؟!

ــ قلت : رأيت أبي أمامي بقامته المديدة ، وأنا أحملق في جدار الغرفة !

ــ قالت : أبي أيضا ؟ .. لقد كان يحبك أكثرنا جميعاً .

ــ قلت : وأنا كنت أحبه أكثركم جميعاً ، ولكني أحياناً أفتقد حنانه .. أراه يوم كان بيننا ، وكنت أتشوق أن أرمي رأسي على صدره ، وهوبوجهه الجاد .. أكاد أحصى المرات التي قبّلت فيها وجنة أبي !

ــ قالت : اهدئي .. تلك حكايات قديمة ، لقد أفزعتني ، ظننت أن « نابليون » تقمص شخصاً آخر ودخل غرفتك !

ابتسمت ، ومسحت بأصابعي على خدها ، وقلت لها :

ــ تعرفي .. كان من الممكن أن يكون أبي في حياته « نابليون » !

ــ قالت ضاحكة : كان يكفيه أن يكون « أوناسيس » زمانه ، إنما ياعيني على بابا كان حظه مع النساء مفلّساً بعكس جيبه المتخم !

ــ قلت أنهرها : بنت ؟!

ــ قالت : خلاص .. انما نابليون قال « فتش عن المرأة » !

ــ قلت : لو كان نابليون امرأة لقال « فتش عن الرجل » !

ــ قالت : غلط .. معاه حق .. ترى إحنا نعمل العمايل !

وامتلأت الغرفة بضحكاتنا ، وكان لابد أن ننام مبكرين ، فموعدنا في فجر الغد مع الطائرة التي ستعيدنا إلى بلدنا !



هل تسمح لي ــ ياسيدي وحلمي ــ أن أصدق أذني هذا المساء ؟!

أتاني صوتك عبر الهاتف مع بداية المساء الثاني لعودتي إلى البلد . هل تراه صوتك بالفعل ؟!

ألم أقل انك رجل صاحب سلوك غريب في معاملة المرأة؟! تختفي لأ يام وأسابيع ، وربما لأكثر من شهرين .. لتظهر بعد ذلك صاخباً ، لامعاً ، متوهجا كفلاش التصوير .. مباغتاً وساطعاً ومحترقا بعد ذلك !؟

كان سؤالك المعتاد الذي لم يفاجئني ، فأنت تطرحه دوماً كلما اختفيت أنت ، أو غبت أنا عنك :

ــ أين أنت طوال هذه الفترة .. إن هاتفك لا يجيب ؟ خفت أن تكوني قــــد متِّ واستمتع عزرائيل بجمالك!

أبتسم فوق سماعة الهاتف ، كأنك تراني .. إنها كلماتك دوماً ، تلك التي لا تتغير، ولا أنت أيضاً تتغير، ولست أدري .. متى تلتزم بمواعيدك .. عذرك الجاهز انك مشغول ، ولكنك تستطيع أن تجد الوقت إن أردت ، على الأقل لتسأل عني لمدة نصف دقيقة . أريد مرة أن أسخر منك فأفشل !

وضبطت غيظي منك ، وأنت تتساءل وتتكلم . كان لابد أن أصغى إلى صوتك طويلا ، لأنني اشتقت إليك .

شعرت بأنك مرتاح نفسياً ، ولديك الاستعداد للكلام .. ألست أنت الذي طلبتني .. أقصد تعطفت ، وتلطفت ، وجئت على نفسك ومشاغلك ، وضغطت على أرقام تليفوني ؟!

عندما تكون في مثل هذه الراحة النفسية فإنني أسعد بالحديث معك ، أو لعل كل من يتكلم معك ، يلحظ تدفقك في الكلام الممتع ، ولا أدري السبب الخفي لراحتك النفسية .. كيف أوفرها لك ، أو من أين تستمدها ؟ هل تراك ترتاح نفسياً عندما تنجز عملاً مهما من أعمالك ، أو عندما تكتب مقطوعة شعر ، والشعر من هواياتك المتعددة المريحة لنفسيتك ، أو عندما تعزف على الكمان فتفرغ شحنة الحزن من نفسك عبر أوتار

هذه الآلة الشجية ؟!

أبتسم فوق سماعة الهاتف ، كأنك تراني .. فأنا أعرف أنك الآن في مكتبك .. ولا مجال للشعر أو للعزف . تراها أنثى جديدة دخلت حياتك ، وحققت لك هذا الشعور بالفرح المتقافز من صوتك ؟!

أعرفك يا «عادل» .. أنت قد تبدو خشناً ، وغليظ الحوار مع امرأة تحادثك في البدء . وليس هذا الطبع والتعامل فيك هو لعبة «الذكورية» .. كطريقة لجذب المرأة إليك .. أعرف انك صادق وصريح ، ولكنك عاطفي ، وفاقد ، ورحّال .. تجوب دروب الحياة بحثاً عن أشياء صغيرة ، ولكنها تغذي النفس بالفرح ، و بالتأمل . أنت «فنان» مجنون ، وأكثر ما استغرب له : كيف لم تقاوم طبيعة الفنان فيك هذا الثبات على العمل الإداري في مكتبك ؟

و يأتيني صوتك معر بدأ صخّاباً ، يتساءل :

ــ أين اختفى صوتك القوس قزح .. لماذا أصابك وقار الفلاسفة فجأة ، أم .. أن الفرح بصوتي حبس صوتك ؟ هيا واصلي ما تريدين .. سواء أردت أن تكوني عصفورة تزقزق أم ..!

ــ عادل ؟ .. لا داعي للعض !

ــ عض ؟! .. لا أعرف أن في الغزل موقفاً ، أو فصلاً نحتاج فيه إلى العض .. أم انك غاضبة مني إلى درجة عدم احتمال أي كلمة ؟!

ــ بالعكس .. أنا مشتاقة إليك جداً ، وحشتني يا «عادل» .. ولعلني أسرعت بالعودة لأ راك !

ــ كالعادة .. رحلت إلى باريس . هيّا اعترفي !

ــ كنت في رحلة استجمام .. كانت أعصابي تفوق احتمالي لها ، فقررت أن أذهب إلى هناك ، ومعي أختي وابن أخي الذي نعالجه .. وجدتها فرصة لمرافقة المريض ، ولمحاولة الابلال من أحزاني النفسية التي تضغط بثقلها على رئتي !

ــ أحزان نفسية ؟ .. ماذا حدث ، هل أمك بخير؟!

ــ بخير، فلا تفزع .

عاد إلى مزاحه ، ولامبالاته ، وصوته الصخّاب يقول :

ــ ها .. عرفت، ذهبت في رحلة استجمام مني .. أعرف أنني أملأك في بعض الأحيان بحزن لا أقصد أن أرميك به، ولكنك حساسة جداً.

ــ ما زلت تعبث، وتسخر، المزاح ليس دائما.

ــ لا تكلميني بهذه الطريقة الدرامية، ولكن .. تستجمين مني أنا ؟!

ــ بل من رياحك وثلوجك معاً .. من طقسك المتناقض، الذي لا يعترف بتعاقب الفصول!

ــ أنت امرأة من نار .. رغم أنني أجد يدك باردة كلما حاولت يدي احتواءها، ولكن سرعان ما تدفأ يدك داخل يدي، وتسخن، وتتقد، و ..

ــ عادل أرجوك .. هل تحادثني الآن لتسخر، أم تراك تتلذذ بتعذيبي ؟!

ــ لا هذا ولا ذاك .. فقط، قلقت عليك، أعرف أن لك صرعات، وتتهمينني بصفات الزئبق، بينما أنت تختفين فجأة .. تسافرين للخارج، أو تنتقلين إلى مدينة أخرى عند أختك الكبرى. يمر عليك وقت أشعر فيه وكأنك تبردين .. تتثلجين كقطعة آيس كريم متجمدة. وأحيانا ألقي القبض على صوتك .. فأكتشف أنك لا ترغبين في محادثتي ولا رؤيتي ولا سماع صوتي .. فهل هذا هو الملل الذي يصيبك أحياناً، أم تراه المزيد من الشوق الذي يختبىء بين أضلعك، وتفرين به مني ومن أسئلتك ؟!

ــ ما أعظم برودك ولا مبالاتك .. من أي عجينة أنت ؟!

ــ ها .. عدنا مرة أخرى لأعواد الكبريت. لاحظي أن كلماتك هذه مثل أعواد الكبريت .. قد تحرق الحب، وقد تزيد اشتعاله!

ــ تقول الحب ؟ .. هل تسمي ما بيننا حباً، وأنا أراك مرة في العام، وقد لا أجدك عندما أطلبك بالهاتف إلا بعد شهور، وتقول لي: الحب ؟!

ــ الحب ليس أن نتقابل بالضرورة، بل أن لا نسأم!

ــ هل أنت مجنون .. هل تعاني من انفصام في الشخصية ؟!

ــ بل أحس بتعب نفساني، تعرفين أنك تطلعين الملاذ لي في قمة شعوري بالتعب، وفي لحظة هروبي من مرهقات الحياة وسخافاتها .. فأنا لا أرتاح إلا في إصغائك، عند ضفافك التي تغسلني مياهها النقية الصافية. كلما تكثفت متاعبي هرعت إليك. وسكبت شكواي ونجواي في أذنك.

ــ محطة استراحة أنا ؟ ولكني لن أرضى بهذا النصيب لي منك!

ـــ ما هذه النغمة الجديدة؟.. كأنك فيما أحدس تطمحين إلى.. الامتلاك، أليس كذلك!

ـــ ليتك تصدقني مرة واحدة. كل ما أريده منك هو صدقك فقط، بل أكثر من هذا.. فليس شرطاً أن تصدق معي، ولكن.. ليتك تصدق مع نفسك مرة واحدة!

ـــ هل تعتبرينني كاذباً؟ بمعنى أنني أضحك عليك، أو أتسلى بك، أو لعلي هذا الممثل البارع الذي يجيد تلوين نبرات صوته حزناً وفرحاً، ولم أكتشف هذه الموهبة عندي!

ـــ لم أتهمك يوماً بالكذب، ولكني أريد منك أن تحدد لنفسك الرؤية، والنظرة والاتجاه. أنت حتى الآن لم تجب على السؤال المطروح في أعماقك: ماذا تريد بالضبط؟ أعرف أنه ليس من طباعك العبث، ولكنك في بعض الأحيان تعبث مسافة طويلة إلى درجة خوفي عليك من أن تخطىء، و يتأذى ضميرك بعد ذلك. ولا تستطيع حينذاك أن تغفر لنفسك زلتها أو لا مبالاتها، أو لعبة العبث.

ـــ تقصدين أنني أعبث بك كالأخريات؟!

ـــ لا.. أنا لست مراهقة، ولم أحبك بعواطفي فقط يا «عادل».. بل أحببتك بخفقي و بعقلي.. وأنت لم تذهب إلى النساء الصغيرات لتغويهن، أو لتطاردهن.. بل تجدهن أمامك يحذفن شبّاكك بالحصى تارة، و بالورد تارة أخرى.

ـــ ولكني.. لست «دون جوان».. أنت فقط تغارين!

ـــ ربما في قلقك وأسئلتك الكثيرة عن الحياة والمواقف وقضية الإنسان ما يأخذك بعض الأحيان لتستريح، أو لتختبىء من أفكارك وقلقك، فينبعث داخلك «دون جوان» مؤقت، ولكن أفكارك الكبيرة ما تلبث أن تعيد هذا الـ«دون جوان» إلى قمقمه في أعماقك، وتفيق من جديد على المواقف والقضية والأسئلة.

ـــ تعرفي؟.. لأول مرة أكاد أرى جزءاً من نفسي في المرآة!

ـــ ربما أكون مرآتك بالفعل، حتى ولو لم تعترف لي بهذا الحق، ولكني أصبحت هذه المرآة في لحظات صدقك أنت.. تلك اللحظات التي قلت لي عنها انها نزف تعبك النفساني، فتستلقي عند ضفافي، وترتاح في إصغائي، وتبوح وتشكو وتنسكب كغيمة محمّلة بالمطر!

ـــ فلماذا، إذن، تضيقين بي عندما اختفى، ولا تعطيني هذا الحق عندما يطرأ

جنونك، فيحرضك على مقاطعتي فترة طويلة؟!

ــ لست أدري.. أتصور انني عندما أقاطعك، كأنني أتناول دواء مراً.. أتجرعه، وأحتمل غصته من أجل أن أشفى منك، أخرجك من قلبي، وأدعك تتبخر من أعماقي وأحظى بحياة جديدة ليس فيها أنت.

ــ وهل تعتقدين أن هذه سعادتك؟.. إذا كان ذلك صحيحاً، فلن أتردد عن الانسحاب من حياتك.

ــ حياتي؟! كأنها أنقاض ودمار. قبل أن أسافر إلى باريس بأسبوع فقط، كنت أتصور أن حياتي ستتحول إلى أكبر حديقة في العالم.. ستغرد فيها الطيور، وتتفتح الزهور والورود، وتنساب جداول المياه، وتطوف بها النسمة الرقيقة، لو أنني استطعت أن أحصل على حريتي من زوجي «المزمن» أو من ذلك الزواج الصوري، كأنه رسم على ورق، فقد بقيت مرتبطة بذلك الرجل الزوج عشرين عاما.. كنا في خلالها زوجين لمدة سنة واحدة، وبعدها كنا نلتقي كالضيوف، كالاصدقاء، البكم، كالجيشين المتواجهين المتحفّزين لبدء لحظة المعركة الفاصلة، واستمر ذلك طوال تسعة عشر عاماً.. قضيتها في الوحدة والقلق، والضياع، والسفر، والاحباط المستمر، وحروب الاستنزاف!

ــ تقصدين يا «ليلى» أنك قبل سفرك إلى باريس بأسبوع، قد..

ــ نعم يا «عادل».. أخيراً، وبعد عشرين عاماً، صرخت أطلب الطلاق ليمنحني حريتي الشخصية.

تصور!.. أتخيل نفسي مثل ذلك السجين العالمي (أدولف هيس) الذي ما زال في سجنه الوحيد.. داخل ذلك القصر المنيف.. يحرسه جنود من روسيا وأمريكا وألمانيا.. يأكل جيداً، ويمارس الرياضة، ويتفرج على التلفزيون، ولكنه لا يرى الشارع، ولا الناس.. ولا الجديد الكثير في العالم، منذ أن أدخلوه السجن بعد الحرب العالمية وحتى الآن. لو مات يوم دخوله السجن لكان أكثر سعادة، ولكنه الآن لو أخرجوه من السجن، فهولا أكثر من مجرد حطام وأنقاض، وماض طويل.. طويل!

ــ ولكن.. احكي لي، كيف تمت هذه المعجزة، ألم تقولي دائماً، إنه يرفض الطلاق، ويرفض الكلام في هذا الأمر؟!

ــ صحيح.. ولكن القصة أكثر مرارة من هذه اللحظة. لقد فرحت كثيراً

بشجاعتي أخيراً، ولكنها الفرحة المهدمة. سأراك غدا يا «عادل» .. انني أحتاج إليك .. ولو لمدة ساعة فقط .. أضع فيها رأسي على صدرك، وأقص عليك فيها أغرب وأفزع قصة زواج في القرن العشرين !!

٤

ضحكت هذا اليوم من قلبي .. كأنني لم أضحك بمثل هذا الفرح طوال عمري!

كانت قدماك تدوس على البنزين بجنون في اتجاه البحر. شقاوتك لا حدود لها، وكأنك طفل غر، تتراقص أمام مِقود العربة، وتغني، وتشدني إليك.

كان هو الحلم الذي أحياه يقظة .. بل لعلني على كثرة ما أراك في نومي، لم أحلم بك بهذا الانطلاق، والشباب، والفرح. وقلت لك ضاحكة، ونحن نقترب من «كابينة» صديقك التي استعرتها منه اليوم:

ــ ترى .. لِمَ أنت سعيد اليوم إلى هذه الدرجة .. هل تحتفل بعودتي من السفر، أم تحتفل بلقائنا هذا بعد أن اشتقت إلى لقائك ما يقارب العام؟!

أدرت وجهك، وحدقت في عيني، ولم تجب إلا بكلمة واحدة: لقد وصلنا! البحر هادىء، فالناس لا يتزاحمون عنده إلا يومي الخميس والجمعة .. حتى الشمس تفرش وجه البحر، دافئة، بدون حرارتها القائظة .. تنعكس أشعتها فوق صفحة الماء كنثارة فضة .. تختال في أعماق البحر كزورق من زئبق. وانطلقت معك إلى المياه نتسابق .. نتضاحك، ولكنني أفر من بين يديك وأتعب بسرعة لتحتويني، أو كأنني أفعل ذلك طائعة لئلا ابتعد عنك وقتا أطول.

أنت لا تحب البحر في صخب وزحام الناس .. دائما تأتي إليه في منتصف الأسبوع وحدك في الغالب .. «تغطس» فيه، وتناجيه، وتقذف بحصوات صغيرة من شاطئه إلى أبعاده وترقب أمواجه وكل ما حوله من صمت. تفرغ شحنة نفسك، وتتنفس هواء جديداً نقيا، وتقفل راجعاً إلى الناس ببطء!

سألتك عند الغروب، ورأسي على كتفك، ونظراتك تطرد وراء الموج:

ــ قل لي يا «عادل» .. هل هناك أنثى حقيقية عشقتها بالفعل؟!

ــ أثارك سؤالي، فقلت: ماذا تقصدين .. هل تعتقدين أنني أحب الأساطير والقصص الخيالية؟!

ــ قلت لك: ليس بهذا المعنى بالضبط، ولكن .. هل عشقت امرأة بلحمها ودمها وتجسيدها، إلى درجة أنك تسهّدت وجافاك النوم، وبكيت، واشتقت وتعذبت؟!

ــ أجبتني سارحاً في البعيد: عشقت، و بكيت، وعصاني الكرى ــ كما يقول الشعراء ــ ولكن.. لِم السؤال ؟!

ــ أبداً.. فقط يخيل إليّ أحياناً أنك حتى الآن لم تحب امرأة بمعنى الحب الحقيقي.. بل ما زلت تفتش عنها في عشرات النساء، وعشرات التجارب والحكايات والوجوه.. حبك الحقيقي أسطوري، رومانسي.

ــ وأنت ؟!

ــ أنت لاتحبني أنا.. لعلك ترتاح لي، تطمئن، تأنس بي.. تجد في فهمي ووعي وحواري تلك الرؤية التي تدخلك إلى أعماقك، وتفتح نوافذها لفترة. ولكني أعرف تماما انني لست حبك الحقيقي!

ــ لن أجادلك الآن.. دعينا سعداء بذلك الفرح الذي بدأنا به يومنا، و بهذا البحر، والغروب، وهمس الكون الرائع المريح للنفس.

ــ أما أنا.. فسعادتي بجانبك الآن اعتبرها جزءاً من الحلم، لأنني بعد ساعة أو أكثر سأفتقدك، ستعيدني إلى مكاني، وتذهب إلى حياتك وعالمك. أرأيت أن اتهامك لي بالرغبة في الاستحواذ، هو إتهام ظالم و باطل ؟!

ــ ولكن الوقت لازال لنا.. فلماذا لا تروي لي حكايتك كلها، إذا كان ذلك لا يضايقك بالطبع ؟

ــ ولكني سعيدة بملاذي إليك الآن.. فلا تحاول أن تعكر لحظة الصفاء والهناء هذه.

ــ أريد أن أعرف كل شيء عنك. ألم تلاحظي أنك ما تزالين لغزاً، أو فصلاً قصيراً من رواية طويلة ؟!

ــ صدقني.. لم تعد لي سوى حكاية واحدة.. حكاية العمر كله: «أنت» ولكنك تتعبني دوماً، وتسحق أعصابي بهروبك واختفائك، وإهمالك المتعمّد لي.

ــ هل تشعرين في هذا السحق الذي تصفين بأنني شارفت حدود الكراهية فيك ؟!

ــ ليتني أستطيع، حتى أستريح منك وأشفى. ولكنه شيء يشبه شعور الأم المعذبة بشقاوة طفلها، وركضه، وتحطيم الكثير.

ــ أنا حطمت شيئاً فيك عليك اللعنة ؟!

ـــ هكذا أنت، مسحوب من لسانك.. ألا تكفيك أعصابي التي تتفنن في اثارتها؟!

ــ لماذا نتناطح في كل حوار؟.. اهدئي الآن، ألا يغريك البحر والغروب أيتها الموسيقارة؟!

ــ ها أنت تسخر من جديد.. إنني أحاول أن أجيد العزف على البيانو، هذا كل ما في الأمر.

ــ حسناً.. أعيدي رأسك إلى كتفي، ودعي يدك مغمورة في يدي.. سأقرأ عليك قصيدة شعر!

* * *

إنك سيدي وحلمي..

مجنون، متفاعل، منفعل، وعلى صورة أخرى: حالم، متأمل، مبحر في الرؤى..

عالمك عجيب.. ليتني استطعت أن أدخله في الوقت المناسب، كنت تمكنت حينذاك من ابتكار المزيد من عطائك كفنان، وكقدرة على العمل، وكإنسان يفيض بالمحبة وبالخير. انت لن تكون شريراً يوماً ما، ولكنك عصبي المزاج.. جموح كخيل.. واضح كنهار قادم.. حميمي متعاطف كمساء ترقرقه زخات الغيث الخفيفة!

وحدك.. تكون لي أنت الرجل المكسب، وأنت الرجل العمر، والحياة.

ولكن.. كيف أمتلكك الآن، وأنت الامتلاك ذاته؟!

والتصقت بذراعك، ورأسي يهدأ فوق كتفك، وقد هدأ الموج في البحر، وتراقص قرص الشمس القاني الغارب على وجه البحر كطائر ذبيح. لا أريد الوقت أن يمضي.. بل ليته يتجمد هنا الآن. لا يعود بنا إلى الوراء، ولا أتمنى أن يأخذنا إلى الغد.. فالمستقبل لن يمنحك لي، بل خوفي منه أن يغيرك.. يغير حتى هذه اللحظة التي تتذكرني فيها، فتأتي، وتحملني، وتطوّح بي في لعبة الوقت المرح والضاحك والغزلي.. كأنني أحلم، ولا ألبث أن أفيق على حياتي التي تعودتها.

فهل ما زلت تصّر على سماع حكايتي بكل فصولها، ومفارقاتها، ومفاجآتها؟!

ولكن.. من أين أبدأ؟!

لقد اختلطت أوراق عمري.. تماما كأوراق الكوتشينة القديمة التي تكاد أن تبلى من كثرة الأيدي التي لعبت بها، ولعبت هي أيضا ـ كرمز للحظ ـ بمن كانوا يعتقدون أنهم من أمهر اللاعبين، وأذكاهم.



الفصل الثالث





١

هل أبدأ حكايتي من بوابة بيتنا الكبير، عندما كنت طفلة.. أم أبدأها من بوابة جناحي المحدود في بيت أهل زوجي، عندما كنت في ثمالة طفولتي؟!

كلا البوابتين.. كانتا ذات تأثير في حياتي، ربما حتى الآن.

لكن بوابة بيتنا الكبير.. كانت تعني «جدي» يرحمه الله.

جدي.. كان اسمه «الحاج عبدالغفار الحامد».. طويل، عريض، مهاب.. شيخ وقور يحفظ القرآن الكريم، ويلجأ إليه الكثير لحل مشاكلهم والتوفيق بين المتخاصمين، ولديه متجر كبير.. قبل أن يعرف الناس اسم «البقالة»، وفي صندوقه الخشبي دفتر صغير يضم أسماء العديد من أهل الحارة الذين يشترون منه السكر والشاي والأرز بالدين، والتسديد المريح، ويقرض من يحتاج إلى فلوس.. يفك بها عوزته.

جدي.. لم يتزوج إلا بامرأة واحدة، والكثير من أصدقائه وأقرانه تزوجوا عدة مرات وكانت جدتي تحترمه، وتهابه. وأنجب منها أبي ـ ابنه البكر ـ وولدين آخرين، وبنتا واحدة، وكلهم كانوا يعرفون موعد عودته إلى البيت من طريقة مشيته، وخبطة عصاه.. فيتخذ كل واحد منهم مكانه!

وعندما شب «أبي» عن الطوق، ودرج إلى مراحل الشباب.. لم يطق أن يبقى مع أبي في دكانه الذي اتسع كثيراً. كان عمي الذي يلي أبي في السن هو ساعد جدي في الدكان، والبيع والشراء.. بينما «أبي» كان مكبّا على الدراسة والتحصيل بتفوق. كان أساتذته يسمونه: «الذكي».. ولا يخالجه الاستحياء من هذه الصفة، بل كان يفخر بها ويشمخ.. وجدي يحذره بين وقت وآخر قائلا: «أخاف عليك من الغرور.. ابتعد عن الغرور، وتشبث بالثقة».

لم أكن أعرف «جدي».. وفي ذلك العهد لم تكن هناك استديوهات

للتصوير، حتى ملامحه لا أعرفها وانما أتخيلها من وصف أبي، وعمتي لأ بيهما، ولكني كنت أشعر بالاعتزاز بجدي .. أحببت شخصيته، ومهابته، وحب الناس له.

كانت عمتي تقول لي:

ـ إذا أردت أن تعرفي صفات جدك، فعليك أن تتأملي والدك .. إنه صورة طبق الأصل من أبيه .. حتى في محبته للناس .. لكن أبيك زاد على جدك، بأنه ينزع دائما إلى تجميع الناس حوله .. كان يحب أن يكون له أصدقاء كثر. و يعرف أن له أعداء .. خصوصا بعد أن كوّن ثروة طائلة، وتقلد مراكز كبيرة مرموقة .. فكانت براعته تتمثل في قدرته أن يستميل إليه حتى أعداءه، ويجعلهم يتحلقون حوله .. فلا تدري في هذا الجمع من بطانته من هو صديقه، ومن هو مناوئه الذي يجامله ؟!

ألم يقولوا: إن المال يورث العداوة؟!

والجاه والمناصب أيضاً تورثان الحسد والغيرة .. ولهذه الأسباب، كان لابد أن يكون لأ بي أعداء.

وعندما مات جدي .. كان أبي في بداية تدرجه في الأعمال الحكومية، بينما عمي يعمل على توسعة التجارة، وعمي الآخر منشغل بالحياة.

وماتت جدتي إثر زوجها بشهور .. كانت تحبه كثيراً، حتى لتخال أنهما شخص واحد .. انشطر إلى نصفين .. واستقل «أبي» بزعامة العائلة بعد جدي .. كان هو الأكبر، والمهيمن .. صاحب الشخصية الطاغية على إخوته. واختفى صوت عصا جدي .. ولكن «أمي» تقول لنا:

ـ أبوكم .. حل مكان والده. كان أنيقا، ومهاباً، و يلبس حذاء له صوت، يسمونه «الزقزق» .. فكنا نعرف أنه عاد إلى البيت، منذ أن يضع خطوته الأ ولى ويجتاز بوابة البيت الكبير.

كان «أبي» يشبه جدي: طو يلاً، ونحيلا، وجاد القسمات، ونافذ النظرة، ولكنه لم يكن مخيفاً .. فالجميع في البيت يحبه، و يقلق لو تأخر عن موعد أو بته دقيقة واحدة .. فقد كان أيضا دقيقا في وقته ومواعيده.

ولكنه لم يكن مثل جدي في حياته الخاصة .. وأول اختلاف عن أبيه: انه كان مولعاً بالثروة و بالجاه، و«بالعزوة» من حوله. وجدي كان يكتفي بمعنى الصداقة

فقط .

وقد تزوج «أبي» بأمي قبل أن يتوفى جدي بعام واحد فقط .. ضغط عليه «جدي» وألح ، حتى حاصره .. وأصر أبي أن يختار زوجته من بلد عربي آخر، لأنه يريد زوجة شقراء يتلاءم لون بشرتها مع سمرة بشرته !!

وأنجب من «أمي» أخي الأكبر «عبدالرؤوف» .. ثم جئت الثانية بعد ميلاد أخي بعشر سنوات ، وجئت بيضاء بلون أمي ، و بعد عامين جاءت لنا أخت ، هي الثالثة .

انشغل «أبي» بمستقبله ، و بطموحاته ، و بهوايته للمال والجاه والثروة .. فكان يتدرج في المناصب ، و يتلألأ في هالة الذيوع والشهرة .. ساعدته على ذلك شخصيته القوية ، وقراءاته المتواصلة ، فقد كان عاشقاً للثقافة ، وللكتاب .

مرة سألت «أمي» بعد وفاة أبي بسنوات طويلة :

ــ هل كنت تحبينه .. هل كان يحبك ؟!

ــ قالت أمي: الحب في زماننا كان هو احترام الرجل الذي تتزوجه المرأة، واستمرار الحياة معه للأبد. وكان الخيط الرفيع الذي يؤكد الحب أو ينفيه هو في محافظة المرأة على بيتها ، فإن لم تستطع و وقع الطلاق .. ثبت حينئذ أن الحب مفقود !

ــ قلت لها : هل كانت هذه هي قاعدة الحب في عصركم ؟!

ــ قالت أمي : نعم .. فالحب هو العقل .

ــ قلت لها : حتى لو كان الزوج قاسيا ، ومتسلطاً .. يهضم حقوق زوجته ؟!

ــ قالت أمي : حقوق الزوجة .. كانت تتمثل في بيتها المفتوح ، وتوفير ما تحتاجه ، وقدرتها على أن تبقى علاقتها بزوجها سرية بينها و بينه ، فالرجل يا ابنتي يحترم المرأة التي تفتح بيته ، وتصون شرفه ، وتربي أولاده تربية سليمة .

ــ قلت لها : والمرأة .. وما تريده من الرجل ؟!

ــ قالت : يوه .. إنتوجيل تاني .. تعليم وفلسفة وكماليات ، وملل .. أنا كنت ما أفتح الشباك بالشهر، ما كنت فاضية . شغل البيت كثير، وما عندي هذا الدلع اللي جاء مع الوسائل الجديدة .. كان كل شغلنا بأيدينا .. ومع ذلك .. كنا نلبس ونتنظف ونسرّح شعرنا ، ونجلس ننتظر سيد البيت حتى يعود .

ــ قلت لها: وعندما يعود.. قد لايلتفت لزينتك؟!
ــ قالت: المهم إنه طيب وسالم، ويحب بيته!
ــ قلت لها ضاحكة: انتم من أهل الجنة؟!
ــ قالت: بل حياتنا الماضية كانت هي الجنة.. الآن جهنم.. وجنون وجري و.. ربنا يستر! الله يعينكم يابنتي على وقتكم!
ولكن... هل كان أبي مثل جدي في حياته الخاصة.. وكيف كانت حياته بعد ذلك؟!



٢

لم يكن أبي مثل «جدي» في حياته الخاصة، ولا حتى في حياته العامة.. ولكن الصفات التي تجمعهما كانت أيضاً متوفرة، بالإضافة إلى الشكل والطول والقسمات.

لقد ورث أبي عن «جدي» قوة الشخصية، والمهابة له. و ورث عنه أيضا: قدرته على سيادة رأيه عندما يُسأل في حل مشكلة، أو يُطلب منه التدخل للتوفيق بين شخصين مختلفين، وكان رأيه الذي يقوله أخّاذاً.. كأنه يسحر المصغين إليه ببراعة منطقه وحجته، وورث عنه: تصميمه على تنفيذ ما يريد.. لا يمكن أن يتنازل بسهولة عن حقه، ومن الصعب أن يفرض عليه رأي أو تصرّف لا يتفق مع ما يريده.

وعندما استرجع وصف أمي لرب الأسرة الكبير «جدي»، وقد كان هو بوابة بيتنا الكبير.. ووصفها لطباع وتصرفات وشريط حياة أبي، فلابد أن أتوقف عند فوارق عديدة بين الأب والا بن.

وعندما أفكر في تلك الفوارق.. فإنني أربطها أحياناً بضرورة الفوارق بين الأجيال، وطموحات كل جيل، وحظ «جدي» من العلم والمعرفة، ودأب أبي على التعليم وتثقيف نفسه، ومطالب كل جيل في اهتماماته المادية.. فقد كان جدي «الحاج الحامد الكبير» قانعاً وسعيداً بتلك «البقالة» التي كانت تعتبر من الدكاكين الكبيرة، ولكني من خلال ما سمعته عنه.. أعتقد أن قناعته الأكثر كانت باستقرار أسرته، و «بالستر» في الرزق، و بالتوفيق الذي منحه الله لجدي، واستطاع به أن ينشىء أولاده بسيرة حسنة، وأن يربي ابنته و يزوجها و «يسترها».

وتلك هي ملامح الرضا التي كانت تأتي تعريفاً لمفهوم السعادة عند ذلك الجيل الذي عاشه «جدي» ولحق «أبي» بجزء منه.. وهو الجزء الذي اصطبغ به جانب من سلوك وتربية ونفسية أبي.. لذلك، فإن «أمي» ما تفتأ تردد في خلوتها وحكاياتها لنا عن الماضي فتقول:

ــ الله يرحم أيام زمان.. كانت أيام القناعة والستر والمودة والصفاء والطيبة. الله يعينكم على زمانكم!

و ينطلق «أبي» من هذا القالب الذي ولد فيه وترعرع .. ليدخل إلى جيله أو عصره، و ينال من التعليم حسب نظام ذلك العهد ما يبلغ به إلى مستوى السنة الرابعة، ولم تكن هناك مدارس بالمعنى المتكامل، ولا أنظمة للتعليم، ولا جامعات بالطبع.

ولكن «أبي» بطموحاته الكثيرة .. استطاع أن يفلت من هذا القمقم!!

لقد كان «جدي» يعدّ المرات التي سافر فيها إلى خارج مدينته على أصابع يده الواحدة، رغم أنه تاجر.

ــ تقول لي أمي: لقد جاء بعض أصدقاء «جدك» يعرضون عليه أن يسافر معهم إلى الهند لجلب بضاعة جديدة، ولكنه رفض.. كان لايأمن البحر. وكان أيضا ــ كما يقول ــ لا يطيق أن يبتعد عن زوجته وأولاده مدة طويلة، كان يحب «العِشرة» والالتصاق بالمكان الذي نشأ فيه.

لكن «أبي» يختلف.. ربما، لأن وسائل السفر في عصره بدأت تتطور، فاستطاع أن يقوم بأول رحلة له إلى «الشام» قبل وفاة «جدي» ليتزوج، فهو طوال عمره مع أبيه لم يستطع أن يتجرأ و يعلن عن رغبته في السفر.

مرة واحدة حاول فيها أن يقنع والدته ــ جدتي ــ لتكلم: «سيد البيت الكبير» بأن يوافق على سفره إلى القاهرة ليتعلم في المدارس المتطورة، ولم تستطع جدتي أن تعيد كلماتها على «جدي» بمجرد أن ارتفع صوته الأجش وهو يرد عليها قائلا:

ــ بتقولي إيه.. انت مجنونة؟!

ــ ولم تسمح «جدتي» لنفسها أن تجّن مرة أخرى، و وئدت الأمنية في مهدها!

* * *

كانت المرة الأولى التي تفارق أمي فيها أبي.. بعد وفاة جدي.

ولكنها لم تستطع أن تعترض، أو حتى تطلب إليه أن يصطحبها معه. لقد قال لها ليلة سفره:

ــ أنا بكره مسافر يا «زينب».

ــ مسافر.. رايح للمدينة المنورة؟

ــ لا.. رايح مصر.. عندي شغل هناك.

ـ ليه .. هُوَّ الشغل انتهى في بلدنا ؟ !

ونظر إليها بعينيه الصارمتين ، دون أن يجيب .. واضطربت أمي ، فآثرت الصمت والإذعان .. حتى أنها خافت أن تغضبه لوسألته عن مدة غيابه .

ـ قال لها وهو يودعها : تركت لكم المصروف عند أخي «سعيد» وهو يتردد عليكم حتى أرجع .

كان عمي «سعيد» هو الشقيق الثاني الذي يلي أبي ، واتخذ مكان «جدي» في الدكان ، وطوره وأحاله إلى عدة دكاكين بعد وفاة جدي ، الآن .. عنده مجموعة من الـ«سوبر ماركت» في عدة مدن من بلادنا .. نجح كتاجر ، ولكنه لم يرزق إلا بولد واحد .. أصبح فيما بعد هو جزء من حكايتي .. أو هو بوابة جناحي المحدود في بيت الزوجية المؤقت !

ولم أكن أعرف شيئاً عن هذه الفترة .. ولكن «أمي» التي بقيت وفية لذكرى أبي حتى اليوم .. لا تتردد بين وقت وآخر عن سرد جانب من حياة الأسرة الكبيرة في تلك الفترة التي لم أولد فيها بعد .. حتى كأنني أراها أمامي ، وأعايشها ، وأعرف ملامح أفرادها الأوائل بدقة .. من كثرة ما أصغيت إلى حكايات أمي ، وذكرياتها التي ترويها لي بشجن ، وربما بدمعة تنفلت رغماً عنها !

* * *

وغاب «أبي» عن بيته في تلك الرحلة ما يقارب الشهر .. كانت أمي في أثنائها تحضن أخي «عبدالرؤوف» الطفل الصغير، وتكنس البيت ـ جناحها الخاص بها ـ وتغسل وتهبط في كل يوم إلى الدور الأرضي .. تنظف «الديوان» الذي يستقبل «أبي» زواره وضيوفه فيه .. فهي لا تعرف متى يؤوب من رحلته .. لم يقل لها ، ولم يكن من حق الزوجة آنذاك أن تسأل في مثل هذه الأمور التي لاينبغي أن تتدخل فيها ، ولكنها تتوقع في كل يوم أن يعود .. يطرق بوابة البيت الكبير. وتسمع وقع خطواته في الردهة الداخلية ، وصوت حذائه «الزقزق» وتراه بقامته المديدة أمامها .. لتقّر عينها وتهدأ ، وتطمئن .

عفوا .. لم أصف لك البيت الكبير، وكيف أثّر فيه حدث وفاة «جدي» فجعله أجنحة وأقساماً .

لقد كان تقسيم البيت الكبير من الداخل فقط .. أما الخارج، والمظهر.. فلم يحدث شيء يغير الصورة التي تعودها الناس وعرفوها عن بيت «الحاج الحامد» .. ما زال هو البيت الكبير الشاهق بأدواره الستة، و بوابته الضخمة المشرعة، وما زال هناك «الراس» أو الآمر المطاع الذي حل مكان «جدي» وهو أبي .. بحكم انه أكبر الأولاد، وبما فرضه من قوة في شخصيته تضاهي قوة شخصية جدي، ففرض الاحترام له من الجميع .. حتى زوجتي أخويه أصبحتا تقولان له عندما تزوجتا من أخويه: «سيدي سالم» .. تماما كما ينادي زوجاهما على أخيهما، وكان أبي أيضا هو صاحب الرأي الأول والأخير لإدارة هذا البيت الكبير، وحتى التجارة ــ بعد موت جدي ــ كان عمي الذي يصغره، لابد أن يستشيره ويحصل على موافقته، برغم أن «عمي» لا يصغر أبي كثيراً، أما عمي الثاني .. فلم يكن يحدث «أبي» في شيء .. ولكنه كلما أراد مطلباً، يدفع بأخيه الذي يكبره إلى أبي ليأخذ موافقته.

لم يكن عمي الأصغر «سفيان» يكن كرها لأبي، فهوشقيقه، ولكنه لا يرتاح إليه كثيرا، يصفه بأنه يتسلط أحياناً و يفرض رأيه مثل «جدي»، وكان عمي الأوسط «سعيد» وعمي الأصغر «سفيان» شخصان على قلب واحد.. لهما أسرارهما الموحدة، وتفاهمهما الكامل.. كأنهما معا الشقيقان وكأن أبي من أم أخرى .. يشعران به متفوقاً عليهما، وأحيانا يفرض سلطانه بالكلمة الجازمة التي لايقبل فيها النقاش.

وعندما انتقل «جدي» إلى مثواه الأخير.. جلس عمي «سعيد» وعمي «سفيان» مع والدتهما التي لم تحتمل كثيراً ففارقت الحياة.. وجاءا إلى أبي ذات ليلة على استحياء وعمي «سفيان» عابس لكنه لا يستطيع أن يرفع الصوت في حضرة أبي، وتكلم عمي «سعيد» قائلا لأبي:

ــ سيدي سالم.

ــ نعم ياسعيد.. خيراً.

ــ عفواً.. يعني لوسمحت لنا بكلمتين.. نستشيرك يعني ياسيدي.

ــ تكلّم.. خيراً إن شاء الله.

ــ يعني.. نقصد أنا و أخو يا سفيان، أن.. يعني!

ــ عجباً.. أنت مضطرب!

ـ لا ياسيدي.. يعني أقول انه.. بعد وفاة الوالدة الله يرحمها، و.. البيت أصبح فاضي، عفوا، يعني زوجتك أم «عبدالرؤوف» كبر البيت عليها، والحمل صار ثقيلا.

ـ ما هو فيه خدامين. ولاّ ايش تقصد؟!

ـ أقصد.. إني بدي أتجوز.

ـ ها.. لكن «سفيان» ما زال صغيراً، لم يكمل الدراسة.

ـ وما دخل سفيان بزواجي؟!

ـ يعني، قلت يمكن متفقين كمان على كده.. أصلو اتفاقاتكم واحدة!

ـ لا ياسيدي.. سفيان يكمل الدراسة، وأنا أتجوز علشان استقر، وأهو.. أنا باتعب في الدكان واحتاج إلى زوجة.

ـ خلاص.. نشوف أختنا «سعاد» تبحث لك عن بنت الحلال.

ـ طبعاً.. الزواج، و..

ـ المصاريف قصدك؟.. ولا يهمك، نحن واحد.

ـ أقصد البيت ياسيدي سالم.. لو توافق أنا آخد الدور اللي بعدك و«سفيان» أخونا يأخذ الدور اللي بعدي. وانت في الدور الأعلى.

ـ ها.. فهمت. ولكن كيف يعيش «سفيان» في الدور اللي بعدك لوحده؟!

ـ لا، ما يسكن.. بس نسميه له، ونحن زي ما احنا عايشين.. ناكل سوا، ونجلس سوا.. النوم بس.. النوم ياسيدي سالم.

ـ هادا الكلام وراه كلام.

ـ ابداً والله ياسيدي سالم.

ـ على أي حال.. أنا ما أسمح ان البيت الكبير هذا يتفكك، أو يتبعثر.. اعملوا مثل ما بدكم، لكن البيت الكبير يبقى أمام الناس واقف.. شامخ، كأنه في عهد «الحاج الحامد».. مفهوم؟!

ـ مفهوم ياسيدي سالم.. إنت سيدنا وأخونا الكبير و بركتنا.

ـ بكره على الغداء نفتح موضوع زواجك «ياسعيد».. روح لأختنا «سعاد» وخليها تجي تتغدى معانا بكره هنا مع زوجها، ونفوضها في الموضوع!

وهكذا.. بدأ الشرخ الأول في بناء البيت الكبير!!

٣

بدأت أكبر.. عندما بدأ أبي يكبر هو الآخر.

كان الفارق في السن بيني و بين أخي «عبدالرؤوف» عشر سنوات.. ولكن الفارق بيني و بينه عند أبي كان مختلفاً أيضاً.

إن أبي يحب البنات، واستمر هذا الحب فيه حتى رحل عنا.

كنت عنده ــ كما تصفني أمي ــ «عين ليلى»، ولابد أن هذا الوصف يشير إلى أن أجمل العيون هي عين «ليلى» أنا ــ ولا غيري، ولكني سألت أمي مرة عن سبب التسمية، أو المعنى من هذا الوصف، فقالت مبتسمة:

ــ أنا أيش دراني.. سمعت أمي تقول كده، فقلت!

ــ لكن ما سألتيها عن المعنى؟!

ــ أسألها ليه.. لازم معنى حلو!

كانوا طيبين جداً، و بسطاء.. بدون تعقيد، و بدون الحاح في الأسئلة. ولو أنني كنت أقول لنفسي أحياناً: هذه ليست طيبة.. إنها تبلغ بهم حدود البلاهة.. واعتذر لجذورنا من هذه التهمة الوقحة.. فلعلهم كانوا يبتعدون عن التعقيد.. وكما نرى الآن، كل سؤال ينتصب في أذهاننا يتحول إلى ما يشبه الدوامة التي تلف العقل وتفسد الروح.

تمنيت في مرات كثيرة لو عشت ذلك العهد ببساطته ونقائه ومودته!

ولكني أعود، و«أتساءل»: هل أخضع لذلك اللون من المعاملة التي كانت تلقاها أمي، أو أية زوجة أخرى من الرجل.. الذي يبدو متسلطا، وسيداً مطاعاً دون اعتراض؟!

تقول لي أمي عندما استفزها وأصارحها بأفكاري هذه:

ــ برغم اللي بتقوليه، ورفضك أن يكون الرجل هو السيد، وهو كل شيء.. فقد كان الزواج معمِّرا.. المرأة تدخل بيت زوجها، ولا تخرج منه إلا إلى القبر!

ــ أرد عليها: ياساتر.. ايش التصوير هذا؟!

ــ تبتسم وترد: عاجبك إن البنت ما تجلس مع زوجها إلا بعض الشهور فقط في أيامنا دي.. هادا من ايش، ما هو من «التطور» اللي بتقولي عليه؟!

ـــ أقول لها : ياماما .. التطور، أو التعليم ما لهم دخل في المشكلة دي .

ـــ تقول ساخرة : أجل .. ايه هيَّا المشكلة ياحبة عيني ؟!

ـــ أقول لها : المشكلة في الناس .. في الحياة والماديات اللي طغت !

ـــ ترد قائلة : يعني التطور!

وصمتت برهة من الوقت . ورأيت دمعة في عينيها . قلقت عليها ، فسألتها :

ـــ ما دخل التطور بالدموع الآن ؟!

ـــ تقول وهي تمسح دمعتها : لو كان أبوك موجود .. كان ما خلاّكي كده .. لا إنت مطلقة . ولا انت متزوجة !

ـــ أقول لها : دي مشكلتي .. وأنا أحلها .

ـــ بس . هُوَّدا اللي نستفيده من التطور!

* * *

وأخذتني كلمة «أمي» القهقري .. عدت إلى الماضي ، عندما كان عمري ستة أعوام فقط !

كان «أبي» يدللني كثيراً .. في الأ وقات التي تسمح له مشاغله بالجلوس إلينا ، أو في الأ وقات التي كنت فيها أقتحم عالم أبي ، وأفرض نفسي عليه ، ولكنه تدليل في حدود !

ـــ كان يقول لي : انت جريئة وعنيدة .. تنفذين ما تريدين !

كنت مثله في هذه الصفة ، وأيضا .. مثله في قوة الشخصية ، وفي عشقي للقراءة ، وللثقافة ، وللموسيقى .

أذكر ما قالته لي أمي عن أول رحلة قام بها أبي إلى مصر، فقد عاد بعد السفر الطو يل وهو يصطحب معه صندوقاً خشبيا كبيراً مليئا بالكتب التي اشتراها من مصر. وحاول هناك أن يتعرف على مجموعة أدباء وفنانين ، وفرض شخصيته ، وأعجبوا بنقاشه وحضوره الثقافي .

وفي كل رحلة يذهب فيها إلى أي مكان .. كان لابد أن يعود بحصيلة من الكتب . وقد أخذت منه هذه الخصلة الجميلة .. لابد لي أول ما أهبط إلى السوق في أي بلد أذهب إليه .. أن أدخل المكتبات وأختار الكتب .. والاضافة التي جدّت عندي

بعد أبي، انني اشتري مع الكتب: الاسطوانات وأشرطة الفيديو الآن، وأشرطة الكاسيت لأحدث الأغاني.. حتى لو لم أفهم كلماتها.. الموسيقى تسحرني، تأخذني إلى دنيا ملونة كقوس قزح.. أحلق فيها، وأحلم، وأحيا الحلم في اعماقي!

وأتذكر أمامي عندما كنت في السادسة.. أتقافز في البيت الكبير كما فراشة جذلى.

كل ما أطلبه.. كان أبي يأمر باحضاره، ورغم شغفه واعتزازه بأخي «عبدالرؤوف».. إلا أن «عين ليلى» كما تقول أمي، كنت أنا.. أما أخي «عبدالرؤوف» فكان يعده كرجل لمواقف الصلابة، وللعلم، وليكون هو الواجهة المشرفة في الجيل القادم لهذا البيت الكبير. وتأتي أختي الصغرى بعد ذلك لتتقافز كفراشة.

عندما كنت في السادسة، كان أخي قد بلغ السادسة عشرة، وهو متفوق في دراسته ومن الأوائل.

وفكر «أبي» في شيء تمنّاه وهو في سن ابنه الآن، ورفض «جدي» أن يحققه له.. وفجأة.. فجّر أبي أمنيته خبراً في البيت.. رقص لها أخي «عبدالرؤوف» و بكت أمي أمام المفاجأة، ولكنها لم تكن تستطيع فعل أي شيء!

ــ لقد قال والدي: سأبعث «عبدالرؤوف» إلى مصر ليواصل دراسته، و يدخل الجامعة.

ــ قالت أمي: كيف يروح للغربة.. مين يرعاه هناك، مين يحن عليه؟!

ــ قال أبي: رتبت له كل شيء.. وهو رجل، من المفروض أن يبدأ في مواجهة الحياة و يتعلم من تجاربها.

ولم تفلح اعتراضات أمي. وسافر «رؤوف» كما كنت أناديه.

وهكذا.. تربعت في قلب أبي بالطول و بالعرض.. أنا وأختي «البنت» أحلام.

كان أبي لا يصعد إلى الدور الأعلى إلا عندما يشارف الليل على منتصفه، لينام.. فكنت أعرف موعد بدء جلوس أبي في «الديوان» بالدور الأرضي، بعد صلاة المغرب، فأهبط إلى هناك.. حيث أرى أبي يتصدر المجلس، و يبدأ زواره وأصدقاؤه في التوافد.. خاصة بعد أن لمع اسم أبي في المجتمع، وأصبح من ذوى المراكز. وشاع

غناه .. فكان يقصده أيضا أصحاب الحاجة ، ومن يحاولون التقرب إليه زلفى .

أصبح ديوان أبي معروفا .. فأدخل أنا هذه الفراشة الملونة المتقافزة رأساً إلى صدر المجلس .. لا اكترث بتحذيرات أمي من النزول عند الرجال ، لعلني من صغري ، وفي هذه السن كنت أشعر بالميل أكثر إلى الرجال فيما يبدو .. كأن أنوثتي متعجلة !

وأركض إلى أبي وأرتمي في حضنه ، ثم أجلس بجانبه .. أتفحص وجوه القادمين .

وكان « أبي » يدمن شرب « الشيشة » .. و يتعاطى « الجراك » الذي وفد الينا من الهند ، وعُرف وشاع .. و يتطلب وجود شيشة طو يلة كبيرة ، يمتد منها « لَيْ » طو يل يبلغ إلى صدر المجلس حيث يتر بع أبي ، و يتحدث في التجارة ، وفي الأدب ، وفي الشعر ، وفي العادات والتقاليد ، وفي الفنون ، والموسيقى ، أما أختي « أحلام » فكانت منذ صغرها اتقل مني مع الرجال !

كانت « الشيشة » هي موضة المجالس الحديثة والمرفهة ، ومن يشرب « الشيشة » يعتبر من الأسر الأ رستقراطية .. وأعمد إلى معابثة أبي وهو يضع « اللَّيْ » في فمه ، فأسحبه منه ، وكان يبدو سعيداً بشقاوتي هذه .

ولكن هذا المجلس ــ بعد ازدياد مسؤوليات أبي ــ لم يعد يلتئم كعادته كل ليلة ، في وقته المحدد والمعروف .. فقد زادت رحلات أبي .. وكثرت سفراته إلى الخارج .. وتضاعفت مسؤولياته والتزاماته .

و بدأ تمتعي بأبوته يتقلص .. لم نعد نراه كثيراً ، فكان يعود بالليل متأخراً ، وكنت أذهب إلى المدرسة قبل أن يستيقظ فلا أراه ، ولم تكن مدرسة بالمعنى العصري !

اشتقت إلى أبي كثيراً .. وأخذ هذا الاشتياق يتطور و يتفاعل في نفسي كفتاة .. بدأت تنسلخ تدريجيا من مراحل الطفولة ، وتدرج إلى الشباب !

* * *

أتذكر الآن ذلك الحنان الذي كان يدفقه عليّ ، وتقول له أمي :

ــ لا تدلّع البنتين كثير ، (بعدين يخسروا لما يكبروا) !

ــ يرد عليها : البنات همَّ اللي يتدلعوا والأ ولاد يتر بوا .

ــ تقول له : بس البنت إن ما اتر بت تخسر !

و ينظر إليها أبي بنظرته الصارمة المعتادة معها ، فتسكت .

كنت أحب أن أجري نحوه وهويدخل إلى الصالة الكبيرة ، وأتعلق برقبته ، وأقبّله في وجنته . واستمرت معي هذه العادة حتى بلغت مرحلة المراهقة ، ثم النضوج .. وحتى قبل أن يودعنا للأ بد ، وهو في سنه الوقور ، وأنا في الخامسة والعشرين ، كنت أتعلق به ، وأحضنه مثل الطفلة الصغيرة التي كانت في السادسة ، وأقبّله ، و يأخذني إلى صدره ، فأرتاح وأهدأ .

لكنني رغم هذا الحنان الذي أعثر عليه ، كلما التقيت بأبي .. فأنا لم أهنأ بأبوته لي . كانت مشاغله تبعده كثيراً عن البيت ، وكانت أمي ضعيفة أمامه .. لا يمكنها أن تحتج . أو تطالبه بنصيبها من حياته و وقته .. وهذا الضعف في أمي أمامه .. دفعها لأن تتحول إلى قسوة عليّ في بعض الأحيان في غيابه .. جعلها الضعف تبحث عن التعو يض داخل البيت .. فكانت مع زوجتي عمي ــ سعيد وسفيان ــ صارمة ، ومديرة بيت صعبة .. تسخرهما ليقوما بمسؤوليات فوق طاقتهما .

وما لبث عمي « سعيد » أن ترك البيت الكبير ، مستقلاً بأسرته و بيت خاص ، ثم لحقه عمي « سفيان » بعد أن ترك الدراسة واتجه هو الآخر للعمل التجاري ، وتزوج .. فاستأجر بيتاً بعيداً عن البيت الكبير ، الذي أصبح خالياً بعدهما إلاّ من أمي ، وأنا ، والخدم والسائق .

كانت أمي تقسو عليّ كلما كبرت عاماً في عمري .. فكلماتها لي قذائف ، ولكنني أحبها فهي أمي ، وصديقتي .. وشعرت وأنا أكبر ، وأخي « رؤوف » ما زال في الغر بة يدرس بعيداً عنها : انها وحيدة .. تزداد آلامها النفسية يوماً بعد يوم .. وهي تكتشف أن أبي يبعد عنها روحاً بل وجسداً ، فأصبحت لا تراه إلا كما يرى الجرسون في الفندق النزيل ، أو كأن هذا البيت الكبير الذي كان يموج بالحركة ، و بالناس .. قد غطاه الصمت ، وعنكب الصدأ على حيو يته .. ذلك أن « سيد البيت » أصبح يخرج من الصباح ، ولا يعود إلا ليأكل ، أو لينام ، أو ليستقبل زائريه في « الديوان » الكبير بالدور الأ رضي !

لابد أن أجد العذر لأمي في حالتها النفسية هذه ، وأقف بجانبها .. رغم انني ملتصقة بأبي ، أحبه ، وأشتاق إلى ذراعيه وحضنه .

ولكن ما حدث بعد ذلك .. كان هو الكارثة !!

٤

غاب أبي عنا، وعن البيت شهراً كاملاً.

كنت قد درجت إلى مرحلة المراهقة، وخطوت إلى السادسة عشرة.. وأخذت أسئلتي تكثر، وأمي تضيق بتلك الأسئلة، لا تريد أن تجيبني عليها بصراحة، لئلا تحدث صدمة نفسية لي.

وهي لم تكن متأكدة من الأجوبة التي كانت تعتقد انهاالرد على إسئلتي.. بل كانت تحدس، تدلها التلباثية أو الحاسة السادسة، وتطعن قلبها.. ولكنها تكتم ذلك كله حتى تتيقن!

تتيقن؟!

وحتى لو انجلى الموقف عن اليقين التام عندها، فماذا كانت ستفعل.. هي الضعيفة أمام أبي؟!

انها تعيش هذه الفترة في دوامة تعصف بها، وليس في يدها أي دليل على توقعها، و بعض الظن إثم.. ولكنها بقلب المحب تحاور نفسها، ولا تجد عندها إلا اليقين فيما تظنه، أو حدست به.

وعدت مساء ذلك اليوم من بيت عمتي.. فقد ذهبت إليها منذ الصباح، وتغذيت معها.. كنت أحبها كثيراً، أستنشق منها رائحة أبي التي تعيد حيو يتي، بعد أن تفاقم شوقي له وحنيني إليه في رحلته التي طالت.. حتى خلت انه مفقود.

لم أكن أصدق أن رجلاً يطيق البعاد عن زوجته وأولاده شهراً كاملاً دون أن يحن اليهم، أو حتى يسأل عنهم، أوعلى الأقل يعرف انهم سيقلقون عليه.

كنت ألح في سؤال عمي «سعيد» كلما جاء إلى بيتنا، ليعرف مطالبنا وحاجتنا كالعادة كلما غاب أبي، وأوصاه بذلك، ولكنه هذه المرة.. رأيت في ملامحه الهروب من أسئلتي، بل الإحراج الشديد.. ويحاول أن يختصر الكلام معنا بكلمات معتادة:

ــ إنه بخير.. لا تقلقوا عليه، هذه عادته.

ولكن ذلك المساء الذي عدت فيه من زيارة عمتي.. كان غيرعادي..

رأيت أمي متجهمة، صامتة.. ولمحت في عينيها دمعة تجول حائرة، تحاول أن

تمنعها أو تداريها.

فزعت.. أسرعت إليها بعباءتي قبل أن ألقيها بعيداً. أمسكت بيدها قلقة، أمرر أصابع يدي على وجهها، وأسألها:

ــ ما بك.. ماذا حدث، لماذا تبكين، هل حدث لأ بي مكروه؟!

ــ لا تفزعي هكذا.. أبوك بخير. اهدئي.

ــ أهدأ وهذه حالتك.. أريحيني واخبريني ما هي الحكاية؟!

ــ لاشيء.. ادخلي غرفتك، و بدلي ملابسك.

انها تتهرب هي الأخرى.. بنفس الطريقة التي يعاملني بها عمي «سعيد» في المدة الأخيرة.

وانتابتني الحيرة.. فأنا أحب «أمي» أكثر من عمري، برغم قسوتها عليّ أحيانا بالكلام، وكيف لا أحبها وأنا معها كصديقين؟.. تصارحني، وتمازحني، وكانت تطلب مني أحياناً في الليالي التي يسافر فيها أبي، أو يتغيب أن أشركها معي فيما أقرأ، فقد كانت قراءتها ضعيفة. وأضحك لطلبها هذا.، ولكني أحس بوطأة الملل على حياتها، وفراغها من أهم ما يشغلها، و بدلاً من أن تجلس الأم وتروي لطفلتها حكاية جميلة، أو تقرأ لها من كتاب حتى تنام.. إلا أنني كنت أتبادل معها هذا الدور، فتجلس بجانبي تصغى وأنا أقرأ وأشرح لها بعض ما يستغلق عليها فهمه.. وكثيراً ما اكتشف انها نامت بجانبي وأنا أقرأ على مسامعها، كالأطفال!

كنت أسميها «الفيلسوفة».. فرغم أن تعليمها متواضع، لكنها كانت لماحة وذكية، وتستطيع أن تستنبط معاني جديدة، وتتوصل إلى رموز في القصة التي أقرأها عليها، وتناقشني فيها، ويمتد نقاشنا في الحياة والناس، وفلسفة الصبر ومعاني الحب.

اكتشفت مفاهيم عديدة في عقلية «أمي» بعد زمن طو يل.. عندما نضجت وكبرت وحفر العمر على وجهها وجسدها أخاديده، و بتنا هي وأنا يضمنا بيت واحد، لايشاركنا أحد فيه.

وكنت أسألها أحياناً:

ــ من أين لك كل هذه الفلسفة والفهم ياماما؟.. أنت ولا أحسن كاتب أو فيلسوف؟!

ــ تبتسم وهي تجيبني: الفضل لك .. هل نسيتي وأنت تقرئين لي من كتبك؟ ثم لا تنسي التجربة يابنتي، والعمر الطويل .. هادا الشَّعْر لم يتحول إلى بياض فضي، وهذه التجاعيد كلها لم تأت من فراغ، أوفجأة .. ولكن الحياة هي أكبر معلم.

ولكن ذلك المساء الذي عدت فيه من بيت عمتي، كان مختلفاً، أو لعله كان بداية تجاعيد الروح والجسد في «أمي».

وعدت اليها بعد أن استبدلت ملابسي، وصنعت لها كوباً من الشاي الأخضر الذي تحبه .. سكبته لها في كأس كبيرة كما تعودت. وجلست بجانبها، أتلمس شعر رأسها وأقبل يدها .. أنتظر أن تطلق اسار ما تحبسه بين ضلوعها.

وأثمر ضغطي عليها بعد كأس الشاي الأخضر. فانهمرت دموعها بلا نشيج، بل بصمت جليل مهيب. وغرقت حدقتاي بالدموع وأنا أسألها. وتكلمت:

ــ اسمعي ياليلى .. سأقول لك خبراً، ولكني أثق انك كبرت .. لم تعودي طفلة.

ــ ماذا حدث ياحبيبتي .. أرجوك بدون مقدمات؟!

ــ لقد جاءني اليوم عمك «سفيان» ...

ــ قاطعتها: عمي «سفيان» رجل المشاكل، إنه لا يحب أبي .. هل تذكرين؟!

ــ لا يا «ليلى» .. سفيان عمك، والظفر لا يطلع من اللحم، والعشرة يابنتي ما تهون إلا على ابن الحرام، وقد كنا معاً في بيت واحد .. كنت مثل أخته الكبرى. وقد جاءني يبكي كالنساء.

ــ لماذا .. هل حدث شيء لزوجته؟!

ــ بل .. يبكي من أجلي وأجلك. أخبرني أن علماً أكيداً بلغه .. بأن والدك .. تزوج!!

انخرطت أمي في عويل هذه المرة، بصوت مرتفع ونشيج. بكيت معها .. فلم أزل طفلة في السادسة عشرة. ولم أدر ماذا أفعل، وماذا أقول. ولكني حاولت لحظتها أن أتمالك نفسي، فقلت لها:

ــ ماهومعقول .. تلاقي عمي «سفيان» يبغى يشوّه سمعة أبو يا.

ــ ليه يابنتي .. دا أخوه برضه، وأبوك هُوَّا اللي ربّى سفيان وعلمه، وكمّل

واجب جدك. وعمك سفيان ما يكره أبوك.. لكن الحقيقة ما تخفى مهما حاول الناس انهم يخفوها.

ـ ايه هوّا دليله؟!

ـ أبوك ياليلى.. رجع البارح من السفر، وحتى الآن ما جانا، ولا اشتاق لنا.

ـ وأبو يا جالس فين.. ماهو ده بيته، حايروح فندق يعني؟

ـ لا.. يروح البيت الجديد.. بأقول لك اتزوج وجاب معاه زوجة جديدة صغيرة شابة من مصر.. من يوم ما سافر اتزوجها، كان مرتّب من الأول، وجلس معاها الشهر.

ـ شهر العسل يعني؟!

ـ أهل بره يسموه كده.. وخلاّنا نحن هنا في شهر بصل!

ـ بس أبو يا ماهو كداب ولا يخاف، لما بيعمل حاجة بيقول عليها.. ليه عمل كده؟!

* * *

لم أنم تلك الليلة.

كنت أفكر في أمي الحزينة الدامعة. وكنت أسترجع ملامح أبي وشخصيته، وكأنني أخاطبه، وأحاكمه. والدموع تملأ عيني:

ـ ليه كده يابابا.. ليه؟!

استعدت بمداركي المحدودة في تلك السن صوراً كثيرة من حياة أبي داخل البيت.. تغيّبه الدائم، ومشاغله، والهوة التي تزداد اتساعا مع الأيام بينه وبين أمي.. كأنها لم تكن زوجته وشريكة عمره.. بل اخته، أوحتى مجرد مديرة منزل.. تطهوله الطعام، وتغسل ملابسه، وتربي له أطفاله.

ـ وتساءلت: هل أخطأت أمي؟!

لاأدري.. ما زلت صغيرة على معرفة واجبات العلاقة الوثيقة بين الزوج والزوجة، ولكن.. لابد أن تكون هناك أسباب!

ترى.. هل هو الاختلاف الظاهر بينهما في المدارك.. فأبي متعلم، وطموح، وقاريء جيد وأمي تفك الحرف، ولا تعرف من جديد الدنيا شيئا، فكيف كانا يتفاهمان، وما هي الأمور التي كانا يتحاوران فيها؟!

ولكن .. ليس ذنب أمي ، فعندما زوجوها لأ بي لم يأخذوا رأيها !

كان المقياس لذلك الجيل : أن تكون الزوجة مطيعة ، ربة منزل .. تجيد فنون الطبخ وتحافظ على بيتها ، وصالحة لإنجاب الأطفال مثل معامل تفريخ الدجاج !.. أما التعليم ، فلم يكن شرطاً ، ولا قيمة له كمطلب في المرأة ، وأما الجمال .. فقد كان من ضروب الحظ ، وكما يسمونه : «شختك ، بختك» !

وملأ وجه أمي سواد عيني .. إنها ذات وجه مليح ، طويلة ، شقراء ، رشيقة الجسم حتى الآن ، فهي لم تنجب سوى «رؤوف» وأنا ، وأحلام .. وتوقفت عن الإنجاب !

صحيح .. لماذا لم تنجب أمي سوانا ؟!

حكمة ربنا .. أم تراها حكمة أبي الذي هجر أمي ، أو تجنب الإنجاب منها ؟!

على أيامهم لم تكن هناك حبوب لمنع الحمل ، كان الرجل هو الذي يتحكم ، لكني لم أشك يوماً أن أبي كان يكره أمي .. فرغم انه جاد في كلامه معها ــ أمامنا على الأقل ــ لكنه كثيراً ما كان يلاطفها ويمازحها ونحن نأكل ، أو نجلس لشرب الشاي .. فما بالك عندما يكونان معاً ؟!

قالت لي أمي ليلتها ما اعتبرته هي حكمة بليغة ، تقال في مثل هذه المواقف :
ــ اسمعي يابنتي .. الراجل لما ياخذ زوجة أقل منه في العلم والمستوى يقنع بها إذا كانت حياته محدودة ومتوسطة الحال .. لكن لما يزيد ماله ، و يلمع جاهه .. يبطر ، و يفتش عن واحده تفهمه .. أبوك معذور ، وأنا ماني ناقمة عليه .
ــ قلت لها يومها : طيب .. والبنت لما تاخذ راجل أقل منها في العلم والمستوى ؟!
ــ ابتسمت وقالت : يمكن هادا يصير في زمانك يابنتي ، لكن لو حصل ده .. راح تتعذب البنت و يضيع الراجل ، لأن البنت سريعة الغرور ، ولابد انها تفكر في واحد بمستواها في العلم والجاه أو القيمة الاجتماعية .
ــ قلت لها : دي ماهي قاعدة .
ــ قالت : أصابعك ما هي سوا ، والناس ما هم سوا ، انما المعادلة هنا صعبة !

ولم أعثر على هذه المعادلة .. عندما كبرت وتزوجت ، وطلقت ، وأحببت ، وتعلمت . لقد عثرت على الفهم الذي يؤكد لنا اننا نخضع للسالب والموجب باستمرار!

٥

لم تجف الدموع من عيني بعد، فقد كانت حالة «أمي» قاسية جداً، إنها لا تبكي كثيرا.. بل هي تكبت أوجاعها بين ضلوعها، وهذا هو العذاب الأعظم، لو كانت «أمي» تبكي، وتترك لدموعها العنان، لارتاحت، ولنفثت آلامها ومعاناتها الكظيمة.. لكنها تطوي محنتها في صدرها، وترفض حتى الشكوى والبوح.

خفت على «أمي» من الانهيار.. فهي عاطفية، وعفوية، ورقيقة.. تبدو كغصن شجرة طري اقتلعته الريح، ورمت به إلى منحدر شلال منهمر.. فكان لابد لي أن احتضنها، وأقف بجانبها، وأخفف عنها مصابها.. برغم يفاعة سني وتجربتي.

وكان حبها الكبير لأبي يمنع عنها غارات الحقد عليه.. بالإضافة إلى ما تعوّده جيلها، وما عرفته عن جيل أمها وأبيها عن زواج الرجل بأكثر من واحدة، وأن ذلك يحدث طبيعيا، ومن حقوق الرجل القادر على تعدد الزوجات ـ من قدرته المالية ـ فهي تعتبر ما حدث هو لا أكثر من صورة تتكرر في مجتمعها، وفي جيلها، وقبل ذلك في جيل أمها التي رضيت بالحياة مع والدها بمشاركة زوجتين أخريين في زوجها!

وعرفت بعد سنوات ـ نضجت خلالها وكبرت ـ أن «أمي» كانت تحرص على إبعادي عن النقطة التي قد أبلغها، فأكره فيها «أبي» بسبب ما فعله بأمي، وقد نجحت في ذلك بكلامها الذي لا ينتهي عن عاطفة أبي، وقوة شخصيته، وتعليمه، وحنانه برغم مسؤولياته.. فكنت في أكثر الليالي، وحينما أضع رأسي على الوسادة أتخيل أبي.. أسترجع صوته، ومواقفه، ورجولته، وهيبته في العائلة كلها، وأستعيد مشاعره الخاصة التي كان يمّحضني إياها وحدي، وكانت «أمي» تقول مبتسمة:

ـ اعتزازي بأبوكم ما أقدر أوصفه!

ولف رأسي سؤال مفاجيء ذات ليلة، وأنا أتذكر «أبي» وأشعر نحوه بشوق يتدفق بلا حدود:

ـ ترى.. ألا يشعر بالشوق لي بعد غيابه عنا أكثر من شهر؟!

ولا أستطيع أن أكرهه.. وأحاول أن أجيب على سؤالي بنفسي نيابة عن «أبي». ثم ما يلبث أن يثور في داخلي سؤال أكثر عنفاً، واختباراً لمشاعري نحو أبي، فأهمس لنفسي:

ــ قد ينساني لفترة لا تطول ، وهو منشغل بالفرح مع العروس الجديدة . إنه لن ينكرني في أعماقه ، ولكن .. كيف سيكون حجمي في عواطفه بعد أن تأتي له الزوجة الجديدة بطفلة تشغله .. هل تأخذ تلك البنت محبته لي اليها وتحتل مكاني ؟!

لقد عذبني هذا السؤال ليالي عديدة .. حتى جاءت تلك الليلة التي سمعنا فيها خطوة « أبي » في ردهة البيت وصوت حذائه الذي « يزقزق » حسب تعبير أمي ، فقفزت من مكاني راكضة .. يشحذني أكبر فرح شعرت به في عمري الغض آنذاك ، ورميت نفسي في أحضانه ، وحفرت رأسي في صدره العريض .. ولأ ول مرة تذوقت طعم دمعة الفرح .. لم أكن أدري أنها بذلك المذاق العجيب .

ولاحظت أن « أبي » لم يتطلع إلى وجهي إلا مرة واحدة ، وأشاح نظراته عني .

تراه هل كان خجلا مني ، أومعتذرا لي ؟!

أما « أمي » .. فقد هرعت إليه ، وتلقفت « مشلحه » ، وسارعت فأحضرت وسادتين وضعتهما على يمينه ، وهي ترسم ابتسامة عجيبة على شفتيها .. كأنها تنحتها فوق وجهها .

والتفت « أبي » نحوي ، وقال بهدوئه وهيبته :

ــ هاتي الشنطة الخضراء ياليلى .

وأخرج منها الكثير .. أقمشة فساتين ، وحلي من الذهب وزعها على أمي ، وعليّ ، وعلى أحلام . ثم أدخل يده في جيبه وأظهر « علبة » من القطيفة الحمراء .. فتحها وناولها لأمي ، وندّت مني شهقة إعجاب .. فقد رأيت داخل العلبة خاتما من الذهب المرصع بالألماس .. أعطاه لأمي وهويقول .. كأنه يسترضيها :

ــ هذا ليس قيمتك ، فأنت زوجتي الأ ولى ، والأصل ، وأم ولدي الكبير وابنتي الأحلى ليلى ، وأحلام .

ــ قلت له متخابثة : هل أنا وأحلام الأحلى فعلا .. أم ستكون هناك .. ؟!

ــ قاطعتني أمي قائلة بزجر: بنت .. عيب ، أبوك يحبك .. انت « لؤلؤة » عقله !

والتفتت نحو أبي بنفس تلك الابتسامة تقول له :

ــ ر بنا يخليك لنا ياأبوعبدالرؤوف .. إنت خيمتنا وتاج راسنا !

أشفقت على « أمي » في تلك الليلة ، فقد كانت تكابر، وتحمّل نفسها فوق

طاقتها.

لكنها قالت لي بعد سنوات في ليلة شتائية باردة، وأنا أدلك قدميها اللتين تشكوان من آلام الروماتيزم:

ــ كان ذلك الموقف صعب عليّ يابنتي، ولكن الأصعب هو أن أفقد والدك، كانت المرأة في زماننا تحرص على أن تكون كل حياتها لرجل واحد.. والمؤلم والقاسي أن تصبح المرأة بين فترة وأخرى في حضن رجل آخر!

ــ قلت لها: حتى لو لم يتفقا، وكانت حياتهما جحيما؟!

ــ قالت: كل شيء له حد، ولكن لا تنسي أن الرجل كان رجلاً بمعنى الكلمة.. في مواقفه، وكلمته، ومعاملته!

* * *

وطرأت على خاطري فكرة جريئة، صممت أن أنفذها..

وانتظرت موعد قدوم «أبي» إلى بيتنا، فقد اتفق مع «أمي» على أن يَعْدِل.. فيأتي إليها ليلة، و يذهب إلى الأخرى في الليلة التالية!

وفاجأت «أبي» بفكرتي، أو برغبتي قبل خروجه من عندنا في الصباح.. طلبت منه أن يأذن لي بالذهاب إلى بيته الثاني، لأتعرف على زوجته الثانية، فقد أصبحت «خالتي»!

أذهلته المفاجأة.. لأول مرة أرى «أبي» المهاب، وهو يضطرب. لقد أحرجته.. ولكنه بعد صمت لم يطل، ابتسم في وجهي، كأنما لمعت في ذهنه هو الآخر فكرة.. فقال لي:

ــ لامانع.. استبدلي ملابسك، وسآخذك إلى هناك، و يعيدك السائق بعد ذلك!

وصحبته إلى بيت «ضرة» أمي.. وأنا أتخيل ملامحها، قوامها، طريقة مشيتها. كنت أود أن أعرف ما هي الميزة التي وجدها أبي فيها، ولم يجدها في «أمي»؟!

ورأيتها تقف أمامي وجها لوجه.. أخذتها المفاجأة في الوهلة الأولى، لكنها تماسكت واندفعت نحوي تحتضنني وتقبلني، قائلة:

ــ انت «ليلى» ها؟.. لقد حدثني والدك كثيراً عنك. لا.. بل سيرتك لم

تسقط من فمه .. إنه يحبك كثيرا .

رأيتها جميلة .. فتاة شابة تصغر أبي بحوالي عشرين عاما . ليست بدينة ولا نحيلة .. بل لها ذلك الجسم الملفوف مع رشاقة ملحوظة . أقصر من أبي ، شقراء ذات شعر أصفر ، ولكنها ليست « خواجاية » اختطفها « أبي » من مدينة المنصورة في مصر ، متعلمة ، وفي عينيها سحر جاذب .

وتركني « أبي » معها .. كانت تنهال عليّ بالأسئلة . أشعرتني أنها تريد رؤية « أمي » .. انها تريد أن تسعد « أبي » وهي تعرف مدى تعلقه بي . وقالت لي أيضا : إن « أبي » حدثها عن احترامه لأمي ، وإنها سيدة عظيمة ، و« بنت حلال » !

أخذت منها ولم أعطها ..

وعندما رو يت لأمي ما رأيت وسمعت .. لم تجبني ، بل كانت صامتة ، وشاردة الذهن . قلت لها :

ـ بتفكري في ايه ؟!

لم تجبني يومها .. ولكني استطعت أن ألاحظ بعد ذلك ، ومع تعاقب الأ يام تصرفات « أمي » مع أبي ، وطريقتها الجديدة في التعامل معه .. فقد زاد اهتمامها به ، كما حدث تطور في عنايتها بنفسها وهندامها ، وفي انتاج مطبخها في اليوم الذي يجيء الينا فيه أبي .

ثم كانت مفاجأة « أمي » التي ألقتها على مسمع أبي ، عندما قالت له :

ـ بدلا من أن تدفع ايجار بيت آخر ، ولديك هذا البيت الكبير .. لماذا لا تأتي بزوجتك إلى هنا ، وتضعها في طابق كامل .. فلا تكون بعيدا عنا ، ولا نكون بعيدا عنك . أريد أن أطمئن عليك .

ونفذ أبي فكرة « أمي » ..

واستطاعت هذه المرأة « أمي » بتمسكها بأبي ، و بحبها له أن تدعه يقترب منها ، بعد أن ابتعد وكادت تفقده . وتوددت إلى الزوجة الثانية . قالت لها : اعتبريني أختك الكبرى .. ونحن معا نخدم رجلاً واحداً .. نحبه ، ونسهر على راحته .

كنت في حالة ذهول .. كان رأسي يدور من هذه الضر بات المتلاحقة التي فعلتها

أمي، كأنها كانت في حلبة مصارعة.. تصافح خصمها في البداية، ثم تندفع إليه وتلوى ذراعه!

ــ وقلت لها وهي تسترجع معي تلك الحكايا: من أين لك تلك الأعصاب ؟!

ــ قالت مبتسمة: الدُهن في العتاقي. اسمعي ياابنتي.. كل انسان له قضية، لابد أن يدافع عنها، ويحققها، و يتمسك بها.

ــ قلت: لو كنت اتعلمتي ودخلتي مدارس.. كنت رئيسة وزراء، كده يعني زي «انديرا غاندي» دا انت خطيرة ياماما!!

* * *

ولم تنجب الزوجة الثانية.. رغم مرور عامين.

ولم تحتمل قدرة احتمال «أمي».. وود «أبي» الملحوظ للبيت الكبير.

كانت «عروسة لعبة»، أو كما اسمتها أمي «عروسة باغه!» أي من البلاستيك.. أعجب بها «أبي» في لحظة اندهاش، وكأي طفل.. أهمل اللعبة بعد فترة، فالرجل يبقى في لحظاته العاطفية والإنسانية: طفل كبير.. عفوي، «وشقي» ومشاغب، ومندهش!

ثم ما لبث أبي أن انشغل بطموحاته، ومسؤولياته التي أخذت تتعاظم وتتسع، وأخذ اسمه يدّوي في المجتمع، وتنوعت تلك الطموحات في المراكز، والثروة، والجاه، وكثرت رحلاته إلى الخارج. وتحولت الزوجة الثانية إلى قطعة أثاث من تلك القطع الثمينة التي أخذت غرف بيتنا تزدحم بها ولكنها جماد، و يبقى كثير من الغرف مقفل لا يدخله أحد إلا في المناسبات.

وشعرت الزوجة الثانية بالسأم، و بالإحباط.. وزاد من مللها وضيقها أنها لم تنجب طفلا من «أبي».. يقربها منه أكثر، و بهدوء.. أيضا.. أجابها «أبي» على طلبها، وأعادها إلى بلدها بعد أن دفع لها تعويضا مجزيا.. فقد ابتاع لها شقة في القاهرة، وملّكها لها.. ورجعت تبكي، وكانت دموعها مثار تعاطف مني لها.. فقد احتضنتها، وهمست لها بوعد: أن أزورها في المنصورة، وأبقى معها عدة أيام، كلما قدمت إلى القاهرة.. هذا إذا وافق أبي.. فنحن لم نخرج من البلد إلا مرة واحدة.. هي الوحيدة التي سمح لنا فيها «أبي» بالسفر إلى القاهرة.. هذا إذا وافق أبي..

يومها ، قالت أمي ، والدمعة تخنقها :

ــ لقد أصبح البيت فارغا من جديد . المرة الأولى عندما مات جدك ، والمرة الثانية عندما انتقل عمك «سعيد» وعمك «سفيان» إلى بيتيهما المستقلين . لقد كانت تملأ علينا البيت !

ــ قلت لأمي : ولكنك كنت تختلفين معها أحيانا ، وكثيراً ما رفعت صوتها عليك وتعدت ، واستفزتك .

ــ قالت أمي بطيبتها : يابنتي .. المصارين في البطن بتتخانق !

لقد استؤصل الآن «مصران» من تلك المصارين ، أو كأنها كانت «المصران الأعور» !

ولكن «أبي» لم يحس بغياب من طلقها .. كان مأخوذاً إلى هالة شديدة الضوء من المكانة الاجتماعية ، والثروة التي تتزايد ، ورحلاته التي تلاحقت !

حتى كان ذلك المساء ..

ناداني «أبي» وهو يبتسم بتودد ، وأجلسني بجانبه ، واحتضنني ، ومسح بيده على رأسي .

ــ قلت له أمازحه كعادتي : ايه الحكاية يازعيم ؟!

كان يقبل كلماتي المدببة ، و يدللني كثيراً . ولم يكن أحد في البيت أو خارجه يجرؤ على الانزلاق أمامه بكلمة مقشرة من التهذيب . ولكنه كان يقبل مني أن أصفه بكلمة «زعيم» و يضحك لها ، وهويقرصني في خدي قائلا : آه ياشقية !

ونظر «أبي» إلى أمي كأنه يستنجدها أن تعينه ، هو هذا الرجل المهاب ، الوقور ، الصارم في المواقف . والتفت نحوي يعيد الابتسامة إلى وجهه ، وقال :

ــ الحكاية يا «لؤلؤة عقلي» انك كبرتي وصرت عروسة ، و.. جالك عريس .

ــ قلت بجرأة : آه .. باين أنا «المصران» الثاني اللي بدكم تطلّعوه من البيت ؟!

ــ قال : انت حشاشة فؤادي ، ولكن .. دي سُنة الحياة ، والعريس ما هو غريب .. دا .. ابن عمك سعيد ، انت بتحبي عمك سعيد كثير ، خلاص .. ده ياستي ولده الكبير .

و .. «بلمت» كأنني دخلت في لج بحر عميق !!



الفصل الرابع





١

ما زلت أنت معي ..

أظل أردد اسمك ، وأحادث خيالك ، وأعاشر وجودك في أعماقي .. أتحدث عنك مع قلبي ، و يرقبنا عقلي باستعلاء وتهكم ، و يسخر منا و يهزأ !

قلبي يحتمي بي .. وأنا ألجأ إليه كلما ألحّ العقل ، وثار ، وعنف ، ومارس ضغوطه ، وهدد بمصير من عذاب وندم ينتظرنا إذا أمعنّا ولم نسلم القياد له !

ترى .. هل نحن واهمان كما يقول ؟!

هل قررت القطيعة حقا .. ونسيت ما كان من ود وألفة وتآلف روح وفكرة ؟!

هل أتى اليوم الذي أسقطتني فيه من مشاعرك وذاكرتك .. مثلما فعلت قبل ذلك مع الأخريات ؟!

ولكن .. لا . قلبي يقول : انك عائد ، لابد .. وأنا أطلب منه المزيد من الصبر ، وعقلي يراوغ بمكر :

لن يعود .. ولو عاد إليك ، فبعد وقت يكون الصبر فيه قد ذاب ، والعمر فيه قد ذوى !

أعرف أنك تختفي فترة طو يلة ، لتعود اليّ مثخناً بالشجن .. فلا تجد سواي صدى مريحاً ، ونقاهة وجدان .

دائما ، وفي كل مرة تعود بعد أن تختفي .. أجدك هذا الطفل الشقي الذي أتعبه الجري والحركة واللعب .. فكأنني صدر أمك الذي تهدأ عند نبضه وتغفو .. حتى إذا استرجعت أنفاسك انطلقت كطائر تجوب الآفاق مجدداً وتختفي ، وأجلس أترقب السماء ، ولحظة إيابك من المدى !

عد إليّ .. اسمعني صوتك ولا تتركني وحدي .. فهذه المرة لا تشبه ما سبقها في العمر الذي يطوى ..

هذه المرة لا أحتمل فراقك وعبثك وغيابك .. أريدك بجانبي لتحميني .. فقط :

عد، ولا تقل شيئا، وافعل أي شيء تريد!

أعدك .. لن يكون عتاب ولا لوم على تأخير عودتك!

أريدك أن تعيد على مسامعي كلماتك.. لا، بل كلمتك العميقة: «وحشتيني»!

مرة واحدة فقط.. مرة أخيرة.. والآن قلها.. وأتنازل عن كل شيء.. حتى عن ما تبقى من العمر!

أرجوك.. لا تدعني في هذه الغابة وحدي، فأنا غريبة بدونك.. وحيدة وعاجزة في غيابك!

فهل يبلغك صوتي الصارخ؟!

أناديك: عد.. قبل أن يقتل حاجتي إليك كبريائي!

عد.. قبل أن تنزف الأشواق، و يقضي اليأس على حنيني!

عد.. قبل أن يسيطر العقل على القلب!

عد... حتى ولو جاءت عودتك إلى الشاطىء الآخر.. فإن مجرد وجودك على مرمى النظر، يحيى الأمل!

* * *

أنا متيقنة من عودتك.. ولكن اليقين يحتاج إلى تأكيد. وحبي ليس حالة، ولم يعد حلماً، ولا هو صدفة.. بل هو الشيء الوحيد الذي أملكه، وأصر عليه، وأختاره بإرادتي.

آه من الذكرى معك!

قلت لي مرة:

ـ لا تستطيعي أن تحبي أحداً غيري.. حبي لك كلعنة الفراعنة!

لاأظنك كنت تداعبني.. فأنا بالفعل لا أقدر أن أحب أحداً سواك، ولكن أنت.. هل أحببتني فعلاً.. وهل استحق الحب في شعورك؟!

سألت نفسي هذا السؤال كثيراً، ولم تجبني.. ولعلني لم أجرؤ أن أسألك، لأني كنت أخشى الإجابة!

أحيانا.. أكون واثقة من حبك لي، وكثيراً ما أشك في هذه الثقة!

وإن كنت استحق هذا الحب.. فلماذا!!

لماذا انتهت حياتي إلى هذا الفشل: تجربة حب فاشلة.. زواج فاشل.. حتى.. حتى أنني عجزت أن أكون أماً!

ما كنت أدري أنني سأتألم من هذا.. أن لا أكون أماً.

لم يكن يعنيني، ولا يشد اهتمامي، خاصة الآن، ربما لأنني بدأت أتقدم في السن!

لا تضحك.. أعرف رأيك وهذرك.. كنت تقول لي في لحظات صفائك:

ــ الأنثى في العشرين قارورة عطر مقفولة، وهي في الثلاثين زجاجة عطر فواحة.. أما حين تبلغ الأربعين فتتحول إلى شجرة لا أحد سواها يمنح الفيء!

ــ يومها قلت لك بغرور: انني معتقة فواحة!

لكني لم أبلغ بعد مرحلة التحول إلى شجرة، وإن كنت أحس أحياناً بذلك، بل وأتمنى أن أتعجل العمر، لأراك تأتي إلى فيئي، وتستريح في ظله وتغفو!

الآن.. لم أعد أفكر في الأمومة.. ربما لأنني أصب أمومتي وأمنحها لابنة أخي.. ربما لأنني ما عدت ألعب بالعرائس، وأرى ابنة أخي تلاعبها وتأخذها مني، وأمي ترمقني بنظرة مضطجعة، وتأمرني أن أدع «غالية» ــ ابنة أخي ــ تلعب!

ولكني أحياناً اكتشف امومتي الغافية الهاجعة تحت رماد السنين.. وأتمنى أن يكون لي طفلة، أربيها وأعلمها، وأضمها وأحبها وتحبني.. ذلك حب مؤكد لا يحتاج إلى دليل.. أن أعطيها كل ما حرمت منه، وكل ما تمنيته!

وعندما أعود لأفكر فيك.. أتساءل عن هذا الذي لم أفهمه بعد..

فالذي لا أفهمه هو أن تنتهي علاقاتي بالفشل.. حتى علاقتي بابنة أخي الصغيرة، بت أخاف عليها من هذا الفشل!

لابد أنني كنت مسؤولة عن هذا الفشل!

اكتشفت انني كنت أنانية في بعض الأحيان، وأنني كنت «مهووسة» بشيء اسمه الكرامة والكبرياء.. حتى عشت يوماً، ضحيت فيه بكل شيء، وتنازلت عن أنانيتي، وعن كرامتي وكبريائي.. في سبيل من لا يستحق!

* * *

لقد رويت لك بداية المرحلة التي فصلتني عن بيت أبي، وعن أمي لفترة.. في ذلك اليوم أمام البحر..

يومها قال لي أبي: انني كبرت وصرت «عروسة» وجاء عريس لخطبتي!

وفوجئت أن من سيكون رفيق رحلة العمر هو ابن عمي سعيد.. اسمه «حسين» رضيت به، لأن والدي قد اختاره، وكنت في مرحلة من العمر لا تؤهلني لأحسن الاختيار، أو أكتشف شخصية من سيشاركني العمر كله، ولا حتى أرفضه لو فكرت في ذلك!

فرحت.. لأني سأستقل، وسيكون لي بيت هو مملكتي الخاصة، وسيكون لي أطفال، ولكني لن أكون ضعيفة مثل أمي.. من البداية سأدع «حسين» يتعود على أسلوبي وطريقتي في الحياة!

كنت ما زلت طفلة مدللة رغم ابتعاد أبي وانشغاله بأعماله وبمركزه.. ورغم قسوة أمي أحياناً عليّ لتعوض عن أفعال أبي بشخصيتها، ولكني كنت أحبها وملتصقة بها جداً!

كنت أحلم في هذا السن من المراهقة بالرجل الفارس الذي يبلور شخصيتي ويمنحني عالماً مستقلاً، و يضمني إليه ويحنو عليّ!

ونعمت بفرح لا يوصف.. أقام أبي الزينات، وكانت سعادته تلون وجهه وتطغى على صرامته المعتادة، فلم أشاهد أبي يضحك مثلما كان يضحك ليلة زفافي.

ورأيت عشي.. أنا العصفورة الرقيقة الزاهية.. ورأيت وجه «حسين» لأ ول مرة بشكل مختلف عن أن يكون ابن عمي.. فقط كنت أريد أن ألوذ إليه ليحميني، و يسكب الحب في جوانحي.

وسافرنا في رحلة شهر العسل.. ولكني اكتشفت أنني غريبة مع غريب.. فهو يعيش في عالم آخر يختلف عن أحلامي وتصوراتي، وطبائعه تختلف عن طبائعي.. وعاطفته رهن العرض والطلب.. يضعها في ثلاجة متى أراد، ويخرجها متى احتاج إلى استخدامها.

ولكن حياتنا معاً استمرت بطيئة مملة.. حتى انتهى عام كامل على هذا الر باط.. كنت في خلاله اقنع نفسي وأصبّرها، وأعدها بالمستقبل.. ذلك أن صناعة التفاهم تأخذ وقتاً.

ثم لم أعد احتمل.. فحاولت أن «أتعود» عليه، فلا بأس إذا وصلت به في نفسي إلى قناعة التعود.. لحظتها سأكون منشغلة بأمومتي للطفل أو الطفلة.

وحتى هذه الأمنية لم أنلها .. دفعته كثيراً أن يذهب إلى الطبيب ليعالج نفسه، وكان يكذب عليّ عندما يدعي ذهابه، و ينكر الطبيب ذلك.

ومر عام آخر.. دون أن أحظى بنعمة التعود.. صرت لا أطيقه أبداً لسبب هام، وهو أنه كان يبتعد عني بروحه، وحتى بجسده.. كنت أشعر أنني وحيدة، وأن عالمه تحت الأرض.. لا يرى السماء ولا النجوم ولا القمر ولا الهواء.. كان يختنق باهتماماته الخاصة!

كم حاولت الاستنجاد به.. كم سألته، بل ورجوته أن يكون قريبا أكثر!

سألته أن يحميني من نفسي.. فلم أكن أطالب بأكثر من حقي.. حقي من الرعاية والاهتمام!

ـــ هل تحبني يا «حسين» ؟!

كنت أسأله صادقة وضائعة، فكان يجيبني بابتسامة باردة:

ـــ انني أحبك.. ألست زوجتي؟!

ـــ وأرد عليه: أريدك أن تحبني أكثر.. ليس لأنني زوجتك فقط، بل لأنني الأنثى التي ترتاح بجانبها وتعطيك وترويك وتملأ حياتك!

ـــ و يسخر من كلماتي قائلا: لا أفهم.. انت انسانة شاعرية!

وتحملت كل شيء.. حتى عجزه تحملته أيضا، وتصور حياة امرأة مع رجل عاجز!

تحملت ثوراته بعد كل مرة يفشل فيها أن يكون رجلاً.. تحملت ما كنت أشعر به كأنثى من قرف ومهانة.

لم أكن أريد غير أن يحبني لأحبه..

ما كنت أريد غير حبه لي واهتمامه وحنانه.. تمنيت أن يغار عليّ.. أن يسمعني كلمة حلوة، دون أن يكون هناك ما يريده بعدها!

تمنيت لو مرة قبّلني أو ضمني إليه.. لو مرة خرج معي أو رقص أو قضى السهرة معي في البيت.. فنتعشى معاً، ونتحدث، ونشاهد التلفزيون!

كان يهرب من البيت، ولا يطيق البقاء فيه.

حاولت أن أوجد له جواً يحبه.. تقربت من أصدقائه، ودعوت عوائلهم إلى منزلي.. ووجدت أنني لم أفعل شيئا يحركه أو يغيره!

احتملت أن أعيش وحدي أكثر من عام.. آكل وحدي، وأخرج وحدي، وأشتري لوازم البيت وحدي، وأذهب للطبيب وحدي، وكنت مريضة وحدي.. حتى عندما يمارس فشله معي أظل وحدي.. أتفرج على نفسي، وأشاهد ما يحدث، وأمثل الرضا ما استطعت!

حتى السفر.. كنت فيه وحدي، وتمنيت لو اعترض، وكثيراً ما نبهته إلى أن ذلك قد يثير أسئلة الآخرين، و يفسح أبواب الأمل لضعاف النفوس!

ولكنه لم يحرك ساكنا.. كأنه تمثال من الشمع، حتى كانت تلك الليلة!

٢

ذلك المساء.. كان هو الليلة الثالثة من وصولنا باريس..

أخذني معه في هذه الرحلة، لأنني حاصرته وأثقلت عليه بالإلحاح.. قلت له:

ـ ان صديقك وشريكك في العمل: «صالح» سيأخذ معه زوجته، فدعني أذهب معك، وسأكون أنا وهي معاً، وحتى لا تشغله عن انجاز أعمالكما، فقد كان يحبها و يراعي مشاعرها، ويخاف أن يتركها وحدها!

بعد إلحاح.. وافق أن أرافقه في هذه الرحلة..

وفي تلك الليلة دعانا صديقه «صالح» إلى العشاء في مطعم فاخر في باريس.. كنا مجموعة كبيرة تتكون من أربعة رجال وزوجاتهم.. وامتدت السهرة في ذلك المطعم الذي يقدم برنامجاً منوعاً وحافلاً!

واكتشفت أن «حسين» معي بجسده، ولكنه منشغل بالكلام مع صديقه «صالح» والرجلان الآخران.. كانا يتابعان البرنامج حينا، و يتحدثان معنا حينا آخر.. ولكني لاحظت اهتمام واحد منهما بالكلام معي.. ضقت وشعرت بالاختناق. حدثت صديقتي زوجة «صالح» فقالت: ليلة.. وتعدي، احتملي!

وفوجئت أن «حسين» يستأذن مع صديقه «صالح» ليغيبا فترة من الوقت.. قلت له:

ـ إلى أين؟!

ـ قال: لنْ نخرج من هنا.. فقط هناك في أقصى المكان رجل مهم، سنتحدث معه لأنه سيفيدنا في صفقة كبيرة!

ـ قلت: صفقة في ليل باريس؟!

ـ قال: بلا نكد.. اتفرجي على البرنامج.. ألا تعلمي أن أهم الصفقات التجارية تعقد في الليل؟!

وكانت مضايقات الرجل الثالث قد تطورت، وتلميحاته اتضحت.. حتى بلغ بي القهر ونفاذ الصبر درجة ضقت فيها بملاحقة هذا الرجل عندما ألغى وجود زوجته، وكانت ضعيفة الشخصية أمامه، وقرب كرسيه بجانبي. وابتدأ الخطوة العملية!

و بادرته بصفعة على وجهه.. تلفت لصداها الكثير.. ونهضت متوترة، وقامت معي صديقتي زوجة «صالح»!

فما الذي تعتقد حدوثه بعد أن عدت إلى البيت .. وأنا أبكي من الغيظ والقهر؟!

* * *

جاء حسين يهدر و يتهدد: لماذا أترك السهرة، ولماذا أتصرف بهذا الجنون!!
شكوت أمر صديقه إليه .. فماذا تظنه فعل؟!
ــ قال لي: فلسفتك وأفكارك اللي تطلعي بها، وقراءاتك .. كلها انعكس تأثيرها على عقلك .. الراجل ده صديقي وأعرفه جيداً، ومن غير الممكن أن يكون تصرفه بسوء نية، ولكنه الوهم في نفسك!
ــ قلت له من خلال دموعي: انت نذل .. ولا تغار عليّ!
ــ قال: ما أغار عليكي .. لأني واثق من أخلاقك!
ــ قلت: أما بارد بشكل!
ولم أرد سماع المزيد الذي لا أحتمله .. فتركت له المكان، وقد قررت السفر، والعودة إلى البلد.
وفوجئت بموافقته .. فهو لا يمانع، ورحب بفكرتي، لأني أحتاج إلى هدوء مع نفسي لترتاح أعصابي!

* * *

وعندما عدت إلى البلد .. جمعت ملابسي وحقائبي، وذهبت إلى بيت أمي!
كانت أمي تعيش وحدها في هذا البيت الكبير، بعد أن توفى «أبي» .. إنها امرأة صابرة، وهي تعيش على الذكرى، واستغرقت في التعبد وامتلكت شفافية الروح .. فطرحت كل أشياء الحياة وراءها، واتجهت إلى هذا الصمت .. فكأن العالم خارجها قوقعة .. هي في داخلها تكوّن عالماً وحدها يخصها!
ولم تتعجب أمي، أو تغضب ..
وجدتها هادئة في استقبالها لي. وقالت لي: اختاري لنفسك غرفة تليق بك، وأثثيها كما تريدين .. فقد ترك لنا والدك الستر والاستغناء عن احتياج اللئام!
ــ قلت لأمي: لكنك لم تطلبي مني أن أتعقل، وأن أعود إلى بيت زوجي؟!
ــ قالت: لأني أعرفك عاقلة، وأعرف أنك احتملت الكثير، وفاض بك الآن. وأنا أعرف «حسين» بكل عيوبه وجنونه، ولكني يومها لم أقدر أن اعترض في وجه

أبيك، فهو ابن أخيه!

ـ قلت: وهل تعرفين كل شيء عانيته معه، برغم أنني لم أقص عليك إلا التوافه؟!

ـ قالت: عرفت ذلك من توترك، ومن عصبيتك، ومن حزنك الذي يفيض من عينيك!

ـ قلت: أنت عظيمة ياأمي.. اكتشفت فيك عالمة نفسية!

ـ قالت مبتسمة: ايوه.. اضحكي وعودي إلى طبيعتك. أعرف أن التجربة قاسية، ولكن العبث بمشاعر الناس أقسى!

ومرت عدة شهور.. لم يكن بيننا اتصال سوى مرة واحدة.. عندما عاد من باريس بعد عشرة أيام من عودتي بدونه.. ذهب إلى البيت فلم يجدني، واكتشف أنني جمعت ملابسي، فاتصل بالهاتف يطرح سؤالاً بارداً لا مباليا:

ـ هل قررت البقاء بجانب أمك!

ـ قلت: هذا أفضل!

ولم أنم في تلك الليلة التي عاد فيها وحادثني بالهاتف.. شعرت أنني هنت عليه، وأنه لا يحمل في قلبه ذرة حب.

تذكرت رحلة باريس الأخيرة وكيف كنا معاً كغريبين غير متجانسين في غرفة واحدة بالفندق.

كان يصحو في الواحدة ظهراً، و يشرب الشاي ويخرج ليتركني وحدي حتى بعد الساعة السابعة مساء، ثم يصحبني للعشاء في مطعم خارجي، أو في مطعم الفندق ويمتد العشاء إلى حوالي الساعة الحادية عشرة.. فيعيدني إلى الغرفة و يستأذن في الذهاب لأصدقائه لإتمام مناقشة أعماله التي جاء من أجلها!

وكنت أعرف تلك الأعمال وأتغاضى لئلا تحدث المصادمة كل ليلة.

وفي الظهيرة عندما يصحو من النوم.. يحكي لي على فنجان الشاي عن جانب من أعمال كثيرة لا أصدق أكثرها، ولكنه يحب الكلام عن نفسه وعن ذكائه، وكيف ضحك على الآخرين!

كنت أصغى له لأ رضي غروره.. ولأن من مهامي أن أجعله يحس بالراحة، حتى ولو عذبني!

ولكني لم أعد أحتمل نزواته، و برودة مشاعره المهينة لدفء نفسي وأحلامي..

فهل عانيت من برودة المشاعر أمام انسان من المفروض أن يكون نصفك الآخر؟!

إن أقسى حياة لا يطيقها بشر.. هي في هذه اللحظة التي يكتشف فيها الإنسان برودة المشاعر!

* * *

واعتدت على حياتي الجديدة بجانب أمي..

و «حسين».. لعله ارتاح في الوضع الجديد الذي اخترته له، بابتعادي عن حياته.. أو أنه لم يعد يدري ما الذي يريد.. فهويسافر دائما ويجد اللحظة التي يسهر فيها و يغير جلده، وهومنشغل بأعماله وصفقاته.

وأردت أن أحدد معالم حياتي أكثر.. لأمتلك حريتي على الأقل، فلا أشعر أن «حسين» باق كالسيف المسلط على مقدراتي وعمري.. فاستشرت أمي، و وافقت.

بعثت إلى «حسين» برسالة مع أخي.. أطلب فيها الطلاق!

وكانت إجابته غريبة.. لقد طوى رسالتي ووضعها في جيبه، والتفت إلى أخي يقول له:

ـــ الآن.. أنا مشغول، وحينما أجد فراغاً، أعطيها الجواب!!

و بقيت انتظرطوال أربعة أعوام!!

ـــ قالت أمي: لعله يريدك!

ـــ قلت: بل ليذلني أكثر.

ولم تفلح كل الوسائط التي استخدمتها.. لعله كان يريدني أن أصاب باليأس، فأعود إلى حياته مرغمة، راضية بكل عيوبها.

ولم أذعن.. وتماديت أفكر أن أحيا حياتي كما أريد!

وفي ليلة العيد من العام الماضي.. كنت وحدي في غربتي. فكرت فيك، وتصورت أنني قد أخرج من حالة الحزن والكآبة التي أعيشها بسبب غيابك ومأساة عمري!

لا أدري.. لماذا قررت لحظتها أن كل شيء هوعبث، وأنني وكل البشر نعيش أكذوبة كبيرة، وخدعة مطلية اسمها: الحياة.. الحب!

وذهبت إلى بيت أخي.. كان البيت يموج بالأصدقاء. ورأيت هناك «صالح»

صديق زوجي..

سألني عن الصحة وحياتي الحاضرة.. سألته عن أخباره وزوجته التي كان يحبها ولا يرفض لها طلبا!

قص عليّ باختصار أنهما اختلفا بعد ذلك الوفاق، و يفكر جديا في الطلاق!

طلبت منه أن لايتسرع، وأن يفكر جيداً!

ــ ماهي أخبار «حسين» وأين هو؟!

سألني فجأة.. فنظرت إليه بعينين باردتين وقلت:

ــ لا أدري عن أخباره شيئا.

ــ قال: ألم ينته الخلاف بينكما إلى قرار؟!

ــ قلت: لم يعد هناك خلاف.. بالنسبة لي انتهى كل شيء.. حتى التفكير فيه!

لقد سألني «صالح» سؤال مجاملة، ولعله يعرف خلفيات عن صديقه لا أعرفها.

وأخذتني لحظة تأمل بعيد، فجاءني صوت «صالح» يسأل:

ــ ماذا يشغلك؟!

ــ قلت: خواطر حالمة.. على فكرة، ما هورأيك بي؟!

فاجأه سؤالي، وحاول أن يتمالك نفسه، وقال:

ــ أنت.. أنت سيدة تفرض احترامها على الآخرين!

ــ قلت: لأنني جميلة؟!

ــ قال: الجمال ليس كل شيء، وليس هومفتاح تقييم الإنسان!

ــ قلت: ربما.. ولكن الرجل يبحث في المرأة عن الجمال كنظرة أولى!

ــ قال: وما نفع الجمال.. إذا كان الداخل قبيحاً؟!

ــ قلت: إن زوجتك جميلة، فهل كان اختيارك لها من أجل جمالها؟!

ــ قال: لا أظن أن التفكير في الحياة الزوجية يتوقف فقط على الشكل.. بل المضمون مهم!

ــ قاطعته: انت تغالط نفسك، فقد لا يكون جمالها مهماً بعد أن تعاشرها وتجد فيها ما ترضاه من خلق وعقل وحنان وتفهم.. لكن الشكل ــ في أول الأمر ــ مهم!

ــ قال: ربما ما تقولينه صحيحا!

وقمت من مكاني.. لأنضم إلى مجموعة من سيدات البيت، واستمع إلى اهتماماتهم من خلال حوارهم.. فاكتشفت أن تلك الاهتمامات كانت تنحصر في زياراتهن لأوربا، وآخر خطوط الموضة والعطر الجديد، حتى بلغ بهن الحديث إلى رواية آخر نكتة!!



٣

في هذه السهرة «الحريمية»! حاولت أن أحول دفة الحديث من خطوط الموضة والعطر الجديد، وآخر نكتة.. إلى حوار، أردت به أن أريح عقلي قليلاً من الهواجس، وأريح عواطفي به من الضغوط النفسية التي أطبقت على عمري كله، منذ عرفت «حسين» وتزوجته، وشقيت بالحياة معه!

والتفت إلى صديقة لي من أفراد هذه «الشلة».. وقد عرفت عنها حبها للشعر، فهي لا تترك ديوان شعر تراه أمامها في مكتبة، أو حتى في بيت تزوره إلا وتأخذه، وكانت تقول لنا ضاحكة:

ــ أنا حرامية شعر.. أي ديوان شعر أراه أمامي، إن لم أستطع أن أشتريه فلا بد أن أسرقه، وهذه هي السرقة الوحيدة التي أجيدها وأتلذذ بها!

وهي بجانب «ميزة» سرقة دواوين الشعر.. تحاول أيضا أن تكتب الشعر. وقد اسمعتني نماذج من شعرها جذبت اهتمامي، وأعجبني بعض ما تكتبه، وحاولت أن أدفعها لتنشره، فكانت ترفض وتقول:

ــ انني لا اكتب إلا لنفسي!

ــ قلت لها: لنفسك فقط.. أم هناك طرف آخر يقرأه؟!

ــ قالت: من الصعب أن نعرض هذا البوح لأي إنسان.. فإذا كان هناك من يستحقه، فلا مانع أن يقرأه!

وأردت أن استفزها في هذه السهرة.. ونجحت فعلاً، وأنا أقول لها:

ــ هل تعتقدين أن ما تكتبينه مما تسمينه شعراً، يستحق فعلا أن تزحمي به حقيبة يدك، وتزحمي به رؤوسنا أيضا؟!

ــ قالت: ماذا تقصدين؟!

ــ قلت: ابداً.. أقصد، أنه لا شيء يستحق فعلا أن يقال!

وقاطعتني صديقة أخرى، كانت تتابع حوارنا، والتفت إلى صديقتي الشاعرة قائلة:

ــ لا عليك.. انها تحب التهريج. يعني.. هل فلحت هي في العزف على البيانو؟!

ـــ قالت الشاعرة: دعيها تقول رأيها .. إنني لا أضيق بالنقد .. على الأقل نعطيها فرصة لـــ «تفضفض» عن نفسها!

ضحكت «سعيدة» .. فقد نجحت في استفزازها، واستطردت أقول:

ـــ لعلك تريدين رأيي وليس مشاعري .. لأنني لو أفصحت عن ما في داخلي .. فقد تغضبين مني!

ـــ قالت متوترة: وعلى إيه .. إنني لا أحاول أن أسرق قصائد الآخرين!

ـــ قلت: ماذا تقصدين هذه المرة؟!

ـــ قالت: لا شيء .. مجرد نكتة!

كنت أتمنى لو لم يتطور هذا الحوار .. فيتحول من المزاح إلى الغمز واللمز!

كنت أود أن أفهمها .. أنني لست التي تحاول سرقة أزواج الأخريات، كما ادعت مرة وحكت للصديقات عن خوفها على زوجها مني! زوجها الذي لا يرى الدنيا إلا من خلال عينيها، ولا يسمع إلا بأذنيها، ولا يتكلم إلا ليؤكد كل ما تقوله، وتعليقه على كلماتها يكون دائما بعبارة واحدة هي: فعلاً!

رجل كهذا .. لا يغريني، حتى أحاول أن أستميله وأخطفه منها .. ولقد أنقذها من ردى صوت أخي وهو يدعونا إلى العشاء!

ووجدت «صالح» بجواري على المائدة، كأنه ينتظرني، أو قصد أن يجلس على هذا المقعد بجانبي .. و يبدو أن الرجل قد أصابه مس في داخله، أو أن مزاحي بالكلام معه في بداية السهرة عن جمالي وعن اعجابي به، قد صعّد المشاعر عنده وأججها، و لعله صدّق لحظة الصدمة التي أردتها لعواطفه نحو زوجته .. فأخذ يتحدث عن نفسه، وعن نجاح أعماله، وكأنه رشاش يطلق عشرات الطلقات في لحظة .. بينما تشاغلت عن كلامه بالأكل، و بالتلفت يمنة و يسرة .. وأحسست بالغثيان من حديثه .. لقد تبدل الرجل أمامي من إنسان رزين وعاقل .. إلى طفل مجنون شقي، وأردت أن أوقفه عند حده، فالتفت نحوه بسخرية أقول:

ـــ أرجوك .. انني أحس بالصداع من كلامك، كأنك اسطوانة مشروخة .. كل وانت ساكت!

ـــ قال: إيه .. مالك، انت أعصابك تعبانة؟!

ـ قلت : أحسن حاجة .. أقوم وأرتاح منك !

* * *

خرجت إلى الشرفة ، أحس بالاختناق .. وأشعلت سيجارة . وشرد فكري بعيداً !

ترى .. أين أنت الآن ، ولماذا لم تكن أنت الذي بجانبي على المائدة ، بدلاً من هذا الثرثار اللجوج ؟!

تخيلتك في بيتك .. تجلس أمام التليفزيون وتدخن « البايب » !

تخيلتك بجانبي .. تنطلق في الكلام عندما كنت مبسوطاً ، وأحب أنا كلامك .. كأنك مصور بارع تنقل عشرات المواقف وتطلعني عليها ، وتشرحها وتفلسفها !

وشعرت باقتراب أخي مني .. وقف بجانبي في الشرفة ، وقال :

ـ بتفكر في مين ياقمر ؟!

تنبهت له ، ابتسمت .. أجبت :

ـ يعني في مين .. أهي الدنيا زحمة !

ـ قال : لا تنسي موعدنا في بداية الأسبوع !

ـ قلت : أي موعد .. فاكرني صديقتك ؟!

ـ قال : بلاش مراوغة .. موعدنا مع « حسين » هنا في البيت .. والآ نسيتي .. اللي واخد عقلك ..

ـ قلت : لا .. لم أنس ، ولكني لا أشعر بأي استعداد لهذا اللقاء ، وأعتقد أنه لا داعي له .. هي كلمة واحدة : يطلقني و بس !

ـ قال : لا يمكن أن نحل مشاكلنا بالعافية .. العنف لا يؤدي إلى نتيجة ، وهذا واحد صلب وعنيد .

ـ قلت : لايعنيني .. أنا أرفض أن عيني تلتقي بعينه .. يطلّق ، ما يطلّق ، لم يعد يهمني .. طز!

وتركت أخي في مكانه ، وخرجت من الشرفة إلى الداخل .. أحسست باختناق مضاعف !

ولحق بي أخي .. وهو يقول :

ـ على فين ماشية ؟!

ـ قلت : إلى البيت .. عند أمي .

ـ قال مبتسما: تعرفي إن دمك تقيل الليلة؟!

بالفعل.. كان دمي ثقيلاً على غير عادتي.. فقد تعوّدوا مني الضحك والتهريج والصخب!

وبكيت في غرفتي.. كنت أشعر بحزن العالم كله يطبق على صدري.. كنت أرى نفسي في تلك اللحظة بأني المظلومة الوحيدة على ظهر الأرض.

كنت محتاجة إليك.. ولو وجدتك في هذا الوقت والظرف ـ مجرد تخيلي لوجودك معي ـ فلابد أن أرتاح.. وجودك يهزني من رأسي إلى أخمص قدمي.

أحبك.. هل تسمعني؟!

هل تشعر بي.. هل ستعود إليّ؟!

أريدك أن تعود كما أحببتك.. قلباً، حنانا، فهماً، عطاء.. أم تراني أحلم، وأطلب المستحيل؟!

أين أنت؟ أريدك. ولو كان بامكاني أن اسمع صوتك وقت ما أريد.. لو أملك أن أحتمي في صدرك عندما تحاصرني وتطاردني أحزاني، وتغرقني آلامي.. لو أنام، ولا أعود لأستيقظ!

لو أنني قدمت لآخرتي، وضمنت أن يغفر الله لي و يرحمني.. لرحبت بالموت.

أعرف أن رحمة ربي واسعة..

يا ربي.. ان همومي كبيرة، وأحزاني ثقيلة، وذنوبي عديدة.. ورحمتك وسعت كل شيء، وقدرتك أكبر.. فاغفر لي وارحمني!!



٤

رن جرس الهاتف في غرفتي .. وعندما رفعت السماعة ، كانت المفاجأة !؟

بعد كل هذه الشهور الطويلة .. لا ، بل بعد عامين .. عاد ليسأل عني !

إنه «نزار» ذلك الشاب الذي حدثتك عنه في البداية حديثاً عابراً .. فقد عرفته في فترة عصيبة ، كنت فيها أعاني من عذاب الإنفصال الروحي والجسدي عن «حسين» الذي تزوجني وحولني إلى قطعة أثاث في بيته .. يتركها متى شاء ، و يعود إليها بعد أن يغطيها التراب والنسيان .

ظهر «نزار» في حياتي .. ووجدت فيه الطموح ، والتهذيب ، وقوة الشخصية ، والمرح ..

كنا نقرأ معاً .. نسمع الأغنيات معاً .. نتحدث في الهاتف ساعات .. نخرج للبحر ، وكانت له محاولات فنية ، فهو يعزف على العود ، و يدندن وأسمعه وانتقده . تستطيع أن تقول انني ارتحت إليه ، ثم تطور الارتياح إلى شعور آخر .. تصاعد في نفسي ، خلت أنني أحببته ، فلما اكتشف ذلك .. أراد أن يستغل هذا التأجج في داخلي من فراغ العاطفة الذي كنت أعيشه وأعاني منه .

وامتدت العلاقة عاماً كاملاً .. كان في خلاله يضرب وتداً لخيمته حولي ، من أجل أن يحتويني كأنثى يجد عندها التسلية ، والحب المؤقت .. اكتشفت انه كان يريد شيئا يأخذه ويمضي !

وفي لحظات التأجج العاطفي عندي .. كنت أتذكر عبارة تشرشل أثناء الحرب ، عندما قالوا له : لقد سقطت سنغافورة ، فأجاب : فلتسقط غيرها !

والفرق بيني و بين تشرشل ــ لا تضحك ! ــ انه برؤيته وثقته في نفسه ، لم يكن يحفل بسقوط سنغافورة ، لأنه سيعالج انكساره في الحرب ، و يقف على قدميه من جديد و يستعيد كل شيء !

بينما حياتي سقطت بالحرب التي أعلنها عليّ زوجي «حسين» فكأن حياتي قد أصابها التدمير .. فما قيمة لأي شيء بعد ذلك ؟!

هكذا كان تصوري ، وما أوردني إليه يأسي وألمي .. فوجدت عند «نزار» ما يعوض عن الهزيمة .. اعطيته بحب ، ولكني وجدت أنه بدأ يتغير!

ذات ليلة.. أيقظته بعد منتصف الليل.. كنت أصرخ من الوحدة والأحزان والفراغ والقلق..

ذهبت إليه.. سقطت على صدره حتى طلع الفجر.. كأنني كنت أبحث عن مخدر فيه.. كأنه كان بالنسبة لي حقنة مورفين.. آخذها وأسترخي وأهدأ!

حتى طلعت أنت كفجر جديد.. يختلف عن كل النهارات والشروق!

أحببتك بوجداني قبل أن أحبك بأنوثتي.. وجدت عندك ما يروي عقلي، و يفتح شرانق نفسي.

أنت أيضا كل عذابي.. لأنك زئبقي.. أجدك ولا أجدك، كلما ردت أن أعطيك أراك تهرب بعيداً.. وأنا أريد أن أعطيك لتعطيني.. كم أنت غامر وعميق!

كان فجرك الذي طلع في عمري.. هو حريتي وانفكاكي من سجن وأسر «نزار».. أصبح شخصاً عاديا بعد أن تكشفت لي نواياه، وتضخمت أنانيته.

ولكن.. لماذا يعود هذا المساء و يتصل بهاتفي؟!

لحظتها.. لم أشعر بشيء.. لا الضيق، ولا الفرحة.. لا الحقد ولا التشفّي.. كل ما أحسسته كان هو الدهشة!

ـ قال: مساء الخير.

ـ أجبت: مساء النور.. أهلا!

ـ قال: كيف حالك.. أين أنت طوال هذا العمر؟!

ـ أجبت: لم أكن أحسن حالاً في أي يوم مضى.. مثلي الآن. أما سؤالك الآخر، فأنا موجودة في مكان ما على هذه الأرض، وأنت لاتجهله!

ـ قال: ماذا تفعلين الآن.. هل كنت نائمة؟!

ـ أجبت: لم أنم بعد.. انني أجهز للعشاء.

ـ قال ساخراً: عشاء أم فطار.. أتدرين كم الساعة الآن؟!

ـ أجبت: لا تهمني الساعة، ولا يعنيني الوقت.. المهم انني جائعة الآن، وعندما يجوع الإنسان يأكل.. والآّ إيه؟!

ـ قال: وعندما لايجد الإنسان الأكل الذي يحبه؟!

ـ أجبت: يفعل مثلي.. ينام!

ـ قال: أريد أن أراك.. اشتقت إليك!

ــ ......

ــ قال : ألم تشتاقي إليَّ.. ولماذا ما عدت تسألين عني ؟!

ــ أجبت : كيف الجو عندكم ؟!

ــ قال : حقيقة.. أين أنت ، هل ما زلت تعيشين ؟!

ــ أجبت : غريبة.. هل بعد كل ما فعلته ، وما ظهر من حقيقتك ، تتوقع أن أعاود الا تصال بك ؟

ــ قال : ما يفعله أي رجل !

ــ أجبت : أنت مغرور.. وإن كنت تعتقد أن ما قلته وما فعلته كان طبيعيا.. فلماذا تداريت واختفيت ؟!

ــ قال : سألت واتصلت ، ولكني أيضا مشغول لشوشتي.. أنا تعبان !

ــ أجبت : ليعينك الله على تعبك ومشاغلك !

ــ قال : أريد أن أهرب.. أن أسافر إلى أي مكان.. أن لا أعود فأحس بالزمن أو بالمكان.. ولكن كيف ، هل أجد عندك حلاً ؟

ــ أجبت : حلي لا يعجبك .

ــ قال : قولي ما عندكِ ، وسأتقبله .

ــ أجبت : كان زمان.. لم يعد عندي شيء الآن لك ، فدعني لعشائي .

ــ قال : ترغبين في انهاء المحادثة.. وانت التي تعلقت بي يوماً ما ؟!

ــ أجبت : ألم أقل انك مغرور.. لعلك ما زلت نائما وتحلم ؟

ــ قال : فعلاً.. كنت نائما .

ــ أجبت : فهل هو الكابوس الذي أيقظك ؟!

ــ قال : لعله ذلك .

ــ أجبت : اذن.. فقد استجيبت دعوتي عليك .

ــ قال : ارجوك.. يكفي ما أعانيه من الأ رق والكوابيس والقلق .

ــ أجبت : هل أثرتك إلى هذا الحد ؟ لا تغضب ، فما عدت أدعو لك ولا عليك !

ــ قال : أتمنى أن تغني لي الآن.. كطفل يريد أنْ ينام بين ذراعي أمه !

ــ أجبت : تبحث عن النغم.. أوعن الكلام ؟!

ــ قال : الموسيقى تريح ، وصوتك موسيقى !

ـ أجبت: فكرة جيدة.. أن أخرج على الناس مطربة، وأهي شغلانة، والمغنية الأيام دي بتاخذ في الفرح أكثر من ثلاثين ألف في الليلة.

ـ قال: شغله مربحة!

ـ أجبت: كل شيء يحتمل الربح والخسارة.. واعتقد أنني لوغنيت لك فلابد أن أخسر.

ـ قال: متى سأراك؟!

ـ أجبت: اسأل أهل الفلك!

واستمر يثرثر.. وأنا أصغى تارة، وتارة أخرى ألمزه، حتى تخيلت أنه تحول إلى اسفنجة دبابيس!

* * *

وانتهت المحادثة.. وشرد فكري طويلاً!

أيام بعيدة، وذكريات مؤلمة.. أعماني فيها الوهم، وسرقني الحب من العقل والرؤية!

كنت أنظر إليه.. كأنه الرجل الوحيد على الأرض.. رجلي وحبيبي!

لم أسأل نفسي يومها، ولم أسأله عن مكاني لديه.. تعاميت عن الحقيقة بإرادتي، وارتضيت أن أحيا بالوهم.

ترى.. ما الذي كان.. ما الذي ربطني به؟!

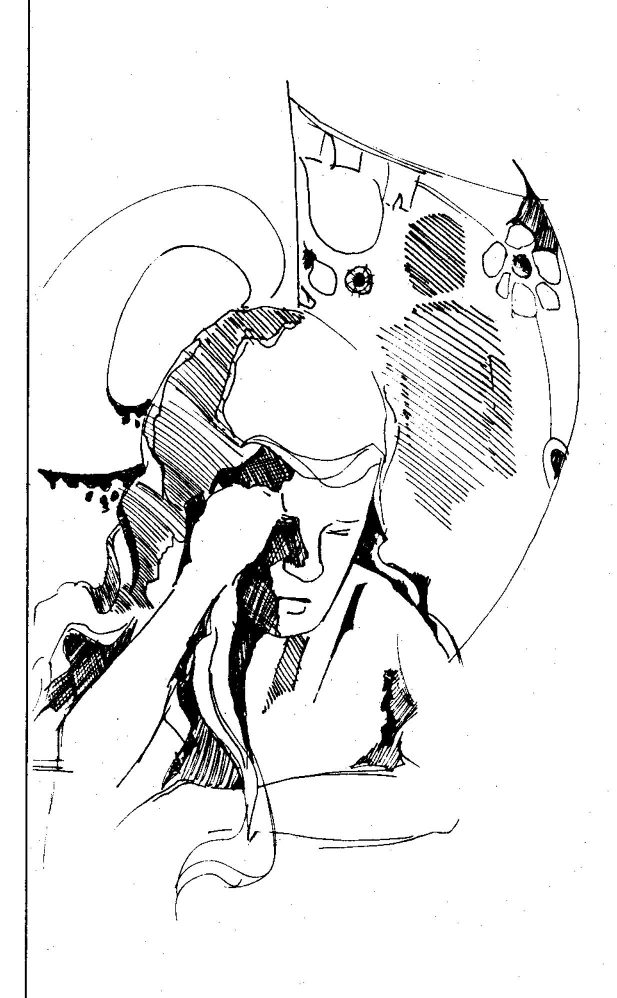
لعله الفراغ العاطفي في تلك الفترة.. والآلام التي رماني «حسين» في دوامتها.. وركضي اللاهث بحثا عن إنسان ينقذني من الضياع، ومن الفراغ، ومن الحزن!

وأطل عليّ فجر اليوم الثاني.. قمت مبكرة على غير عادتي، وانتظرت موعد حضورك إلى مكتبك. كان عندي إحساس أنك ستمحوآثار الليلة الماضية.. أحس أنك تتمتع بقدر كبير من التلباثية التي تدفعك للإحساس بأنني في خطر، أوفي ضيق!

وبالفعل.. جاءني صوتك، فانتهى القلق والعذاب.

وعاد الرفيق الدائم لحياتي: الانتظار.. انتظارك!!

الفصل الخامس





١

طال انتظاري لك .. حتى لصوتك الذي غاب عني!

وطوال شهر رمضان فتشت عنك .. لم تقل لي أنك ستختفي حتى من سمعي فهل تراك قصدت هذا الهروب؟!

وعندما هلّ عيد الفطر.. شعرت بتوق إليك يجرف كل اصطباري وصمودي في قسوة غيابك!

وكعادتك.. اعرف أنك لن تخبرني عن أسباب هذا الانقطاع، ولكني —في العيد— تخيلت ورأيت ابتسامتك، واحتضنت كفاي وجهك!

كنت أحب أن أقول لك مع مدافع العيد: كل عام وأنت بخير.. كل عام وأنت حبيبي.. كل عام وأنت كل حلمي، وان بقيت في مشاعرك هذا الجزء الصغير من أحلامك!

كنت أريد أن أسألك: هل تسعد بهذا العيد بمشاعر خاصة بك مثلي.. ابتكر بها عالماً خاصاً، وأحيا لحظة سعادة مسروقة من الأحلام، وامتزج بأنفاس حبيبي؟!

هل تحتفل بعيد الفطر، مثلما كان آباؤنا وأجدادنا يفعلون.. فيصلون الأرحام، وينهون الخصومات بين الأصدقاء، ويلتئم شمل الأسر في مهرجان محبة يجعل دموع الفرح تطفر من العيون والقلوب؟!

رعاها الله تلك الأيام.. كان بيتنا يمتلىء بالأهل والأقرباء، وحتى الأصدقاء.. حتى الذين اضطرهم السفر، تجدهم يعودون مع بداية رمضان، ويجمعهم هذا العيد.. يعمق المحبة، ويجلو صدأ هموم العام كله!

ستقول لي الآن: لقد اختلفت الصورة.. بل لقد اختلفت نفوس الناس، ففي هذه المناسبة الحميمة تجدهم يهربون من لقاء المودة.. يتبعثرون في أزقة ومرتفعات وفنادق العالم.. كأنهم يهربون من المحبة!

لم يعد ذلك الرابط يحزمهم ليكونوا صورة لاطار كبير.. كل واحد منا أصبح يحب

أن تأخذ له صورة لوحده!

إنها الغربة ياحبيبي!

ولعلي بدأت أشعر بهذه الغربة يوم فقدت أبي.. ثم تكثفت أكثر بعد تجربتي القاسية لأن أكون زوجة، وأماً.. ولا أدري مبلغ هذه القسوة في شعور المحب؟!

لكنني بعد أن أحببتك.. أحسست أن اليوم الذي جئت فيه إلى الدنيا، كان هو اليوم الذي وجدتك فيه، لتجعل لحياتي ولوجودي معنى.. ولتقشع عن نفسي لزوجة ونزيف الغربة!

أحببتك.. وأخذني هذا الحب، وطار بي إلى جزر الدهشة والأحلام.

أخذني هذا الحب من يدي، كطفلة.. لف بي العالم الرحب، المشع بوجهك، والمضيء بابتسامتك، والباهر بضحكتك المميزة.. وفرحت بهذا الحب، وزهوت بما رأيت وعشت وأحسست!

تمردت على كل ما مضي.. على كل القيود والإحباطات والحزن، وانتشيت، وسموت.. ما عدت أكتفي بهذا الجزء من الحلم، بل رحت أطلب المزيد.. أن نسمو فوق الزمن.. لنبتكر زمنا يحتفظ و يرسخ معنى الحب الواحد.. الحب الأخضر دوماً!

فهل تراني كنت أحلم بالفعل؟!

عشت في شرنقة من الأوهام والأماني الكاذبة.. نسجتها بنفسي من تخيلي، ومن عاطفتي.

ضمني الألم والندم بين ذراعين قاسيتين، وخنق أنفاسي، واستعبدني!

وعندما وجدتك.. خرجت إلى الضوء الباهر منك: فراشة بأجنحة ملونة شفافة.. فطرت إلى سماء رحبة صافية من الغيوم.. تحررت من العناق الخانق، ومن الذراعين القاسيتين، ومن الوهم المميت!

كنت هذه الفراشة التي تحوم حول الضوء.. تدنو منه.. تحاول الالتصاق به، ولو كان في هذا كله هلاكها.. أن ألمس الضوء.. أن يسري دفئه في ضلوعي.. أن أدخل فيه لحظة، و بعدها الموت.. لحظة عظيمة، أبدية، هي لحظة بالعمر كله، وقد يكون العمر لحظة تساوي الميلاد، والعمر الطويل الرائع!

تطلعت إليك هذا الضوء والنور الذي يحنو عليّ، و يترفق بي.. يكون معطاء

ويمسح على جناحي الفراشة ، و يضمها إليه دون أن يحرقها .. فهل كان ذلك ممكنا ؟!

كنت أعرف أنك باعث الضوء ، ومن يقترب منك سيحترق لا محالة ، ولم يكن يهمني أن أحترق فيك أو بك .. بل كان يهمني أن ألتصق بك فأحترق أنا .. لتتوهج أنت أكثر!

عشت على هذا الحب ، ومن أجله سأعيش ما تبقى لي في العمر.

أريد أن أحيا كل العمر، أحترق فيك .. أسمعك ، وأراك ، وألمسك ،وألجأ إليك .. وتحتاج إلى وجودي معك لتتوهج أكثر!

آه لو تعرف كم يهمني هذا ، و يسعدني دوماً أن أكون يقربك حتى لولم نتكلم معاً .

كنت أحس بهذا الشعور، وتعودت عليه : أن أحبك .. وأن أتعود على غرائبك وعلى جنونك ، وعلى زئبقيتك .. أن أدمن وجودك بجواري!

كنت حين عرفتك أشتاق إليك .. واليوم صرت أشتاق إليك وأبحث عنك .. لا أعرف كيف أجدك .. وأين!

أحب وجودك في حياتي .. تحبني ، إذن أنا موجودة!

ومضيت علواً وتصاعداً .. و بقيت أنت مكانك ، ولعل نفسك قد تاقت إلى التغيير!

تعذبت في غيابك ، و يشقيني انشغالك عني وإهمال سؤالي .. فضاقت بي الدنيا ، وضقت بها!

حاولت أن أبقي على ما تبقى .. خفت من عتابك ، وأخفيت عنك آلامي ، وداريت هواجسي وظنوني، وما يدور في خَواطري.

حاستي أنذرتني .. هددت أماني واطمئناني، واحساسي الجميل بالغيرة، و بالخوف ، و بالقلق ، و بالحيرة!

ياه .. كيف ستعرف كم عانيت من عذاب .. حتى العذابات الصغيرة التي تتولد من غيرتي عليك . فهل تذكر؟!

لا أظنك نسيت صديقتي «عليه» .. كانت تطمع في رؤيتك ، بل ان خيالا تها

تبدو منطلقة وهي تتحدث عنك، وذات يوم أخبرتني أنها عثرت عليك، وأعطيتها من وقتك الذي لاأجده وقتاً طويلاً، تحدثتما فيه بما أثار غيرتي.. فهل تعرف أنني كدت أفقد صديقتي من أجلك أو بسببك؟!

كان يعذبني أن الآخرين يجدونك، وأنا لا أجدك.. وأظن بك الظنون كأنك تتهرب مني، حتى تذوب الظنون بمجرد سماع صوتك أو رؤيتك. وكنت تقول لي ساخراً:

ــ أنا رجل عام.. يملكني الناس جميعاً والمهم.. من أملكه أنا!

إنك تقلب الصورة الطبيعية.. فالأصح أن تقول: المهم.. من تملكني!

لكن اعتزازك بنفسك يبلغ بك أحيانا حد الغرور، برغم رقتك ونقاء نفسك!

ولقد روضت نفسي.. أرغمتها على أن تقبل غيابك.. و يبدو أنني نجحت، لأنك صرت تقول لي: لقد تغيرت!

ليتني أتغير.. فلا أعود أتمناك، ولا أرجوك!

أتمنى لو يفارقني الإحساس بأني أطلب ما ليس لي، وأني أثقل عليك.. والذي أوصلني إلى هذا التمني هو شعوري بأنك أنت من تغير.. وتبقى فراشتك هائمة حائرة، خائفة تتخبط بعد أن عم الظلام!

افتقدك كثيراً.. أفتقد فرحتي بسماع صوتك، وسعادتي بسؤالك عني.

أفتقد اهتمامك.. عينيك، وجهك، أصابع يدك المجنونة، ضحكتك.. أفتقد حتى غضبتك عليّ، واعتذاري لترضى.. وأفتقد كلماتك التي كنت تثير بها غيرتي، فتؤلمني وأغضب و يفلت مني اللسان، فأقول ما يغضبك.. وأعود لأصالحك، خوفاً من أن تطول غيبتك، وأنسى أنك أثرتني!

أفتقد صوتك عندما يسمح للكلمات العفوية أن تتردد من خلاله، وأنت تقول لي:

ــ أبحث عنك بالحاسة السادسة.. بالنداء الداخلي، بالروح.. وأتوقع وجودك بجانبي في لحظة احتياجي إلى أصداء من نفسي!

فهل تعني ذلك حقا؟!

أرجوك.. أتوسل إليك.. أريد أن أراك، وأن يصل نبض يدي إلى يديك!

إنني ريشة في مهب الريح.. بلا هوية، بلا وطن لنفسي التائهة!

إنني هذه الأنثى... يحرمها المجتمع من كل الفرص، ومن الأحلام.. بمجرد أن تتزوج لأول مرة، وعندما تفشل هذه الشركة، لا تجد من يرحمها.. بل تتكالب عليها موجات من الإزدراء، ومن الإهمال.. دون أن ينظر المجتمع إلى أسباب تحطيم ذلك العش.. الذي ينقلب إلى سجن وإلى جحيم!

إنني هذه الأنثى التي تصبح التجربة الأولى في حياتها حكماً بالإعدام على المستقبل!



٢

أريد أن أنام، ولا أستطيع..

أشعر بهذا الوقت الأفعواني في أي مكان أذهب إليه.. هاربة من بيتي ومن نفسي.

أريد أن أحتمي بالآخرين الذين ألجأ إليهم، كلما كان الصبح غير ممكن ومتعذر!

أريد أن أرتاح، وأهدأ.. أن أغلق عيني وأحلم.. أحلم!

قلق فظيع.. حيرة مرة.. وحشة قاسية.. وحنين لا أقدر على احتماله، ولا على وصفه!

أنت يا أنا.. أين تكون ياحلمي الأخضر.. ياواحتى وملاذي.. أين أنت؟!

ما عادت الأماني تعطي أو تلوح.. ما عاد الخيال يجدي أو يزرع الصبر، والذكريات تزيد النار اشتعالا!

إنني أتمزق في هذه الوحدة.. حتى صديقاتي مللتهن، لم أعد أرفع سماعة الهاتف على واحدة منهن.. لم أعد أرغب في زيارتهن، أريد أن أبقى منفردة بنفسي في غرفتي هذه.. أتوخى صوتك، واسترجع شريط عمري.. كل ما مرّ من رؤية ومن عمى.. من فرح ومن ترح.. من أمل ومن إحباط.

أيامي.. هل ما زال يهمك أن تعرف عنها؟!

في غيبتك.. كل شيء لا يحتمل. أسأل نفسي: هل هذا حب.. أم عشق.. أم وله؟!

لا.. إنه جنون، فقد أصبحت أنت معنى كل شيء في حياتي، وملامح كل شيء، ونبض عروقي، وخفق قلبي.. سعادتي وتعاستي.. جنوني ومكنوني.

«إيزيس» أنا.. تبحث عنك، تجوب الأمصار، وتحاول أن تلملم ما كان لها فيك ومعك.. فضاع، وتبعثر.. كأنك تحولت إلى أسطورة، أو حكاية شعبية؟!

نحن معاً في مدينة واحدة.. وكأن هناك مسافات لا نهائية تحول بيننا..

منذ أن علمت بعودتك من رحلة العمل التي قمت بها إلى باريس، وأنا مسمار مدقوق في حائط الانتظار.. أحاول أن لا ابتعد عن الهاتف.. رنينه يسعدني، و يزلزل

كياني هذا الترقب!

أسري عن نفسي وأصبرها.. أقول لها: لابد أنك تشتاق إليَّ، وستسأل عني.. سأزورك في أحلامك، وأذكرك أني باقية هنا أحتاجك!

من قبل أن تسافر.. من زمن أخذ يتباعد بنا، وأنا أحاول جاهدة أن أجدك.. لكنك تمضي بعيداً إلى جزر واق الواق.. أنت رجل أسطوري.. رجل حكايات تدغدغ أحلام الصبايا.

كنت أشعر أن هناك شيئا آخر.. غير متاعبك في العمل ومشاكله. حاولت أن أدفعك للحديث عنك، لكنك تجيد الهرب دائما، ولم تقل لي إلا ما تحب لي أن أعرف.

حاولت أيضا أن أكون قريبة منك.. أن أكون نفسك التي تحاورها، وتسألها، وتشكو لها.

مهما كان.. مما تريد أن تقوله، سأسمعك جيداً. فقط تكلم، قل لو أردت: انك تحب إنسانة أخرى غيري.. تصور، إلى هذه الدرجة أرضى، المهم أن ترتاح، وتهدأ، وأجدك!

صعب أن تتحول الأنثى التي تحب إلى صديقة لمن أحبته.. لكنني أرضى بذلك، لأكون الصدر الحنون الذي ترتمي عليه، وتغتسل، وتنام!

هنا أنا على هذا الشاطىء.. وأنت في الجهة المقابلة، قد تدعوني أحياناً.. تناديني، و يصور لي إحساسي ـــ رغم بعد الشقة ـــ انني لابد أصل إليك.. أجاهد الموج والعواصف، حتى تخور قواي، وأقاوم الغرق بما تبقّى لي من جهد، وأفتح عيني، لأجد الموج قد حملني وعاد بي إلى حيث كنت في الوحدة، والوحشة، والحنين لك!

عندها.. أتمنى لو أنني غرقت وابتلعتني الأمواج، حتى أكفي هذه النفس محاولة أخرى فاشلة!

ترى.. لماذا لا تحاول أنت.. هل لأني لا أستحق المحاولة منك، أم لأنك مشدود هناك رغما عنك إلى إنسانة أخرى.. إلى عالم استحوذ عليك منذ زمن طو يل؟!

لا أمل يتحقق في حياتي.. ولا يأس يريح، فهل ترى كيف أحيا؟!

حتى الجزء الذي تحقق من أحلامي.. تريد أن تسرقه مني.. تبخل به، فماذا أفعل؟!

قل لي بربك: ماذا أفعل.. لو كنت أنسى الماضي كله.. لو أفقد ذاكرتي وأنسى كل شيء، وألقاك من جديد؟!

لكني لا أريد أن أنسى ما قلته لي يوماً، أو في لحظة صدق وأسعدني!

لا أريد أن أنسى ما جعلتني به أحسد نفسي، وأشعر أنك النسمة الحانية والعطوف، وانك تمثل واقعي وعمري وشجوني وهمومي وسعادتي!

أنت أيها البعيد في قربك.. أنت يا من لست لي:

بك استعدت ما ضاع مني، ووجدت ما افتقدت، وأعدت لي الوفاق بيني وبين نفسي.. فإذا تخليت عني ماذا سيحدث لي؟!

حاولت أن أتراجع.. فما استطعت.. ما استطعت.. انني أصرخ حانقة عاجزة لأنني ما استطعت!

لا تدفع بي إلى الندم.. لا تثر غيرتي أكثر مما أثرت.. لا تغب عني، فأنا أحبك.. أريدك!

هل هنالك ما يمكن أن يقال أكثر من ذلك.. فيعبر لك عن كل ما في نفسي؟!

إن ما في نفسي نحوك هو الأجمل والأعظم والأعمق!

لا أملك قدرة إخفاء غيرتي عليك، وأنا أشعر من خلال كلماتك وتصرفاتك ما يوحي بأن هناك أخريات.. أنت قلتها صريحة، ولم تخفها برغم أني ما سألت. كنت خائفة من الظن والشك، فكيف باليقين؟!

ماذا أفعل.. أغار وأخاف عليك!

قد تبعدك تصرفاتي الأنانية.. ولكني أحب أن أبقي عليك، أو أبقي على نفسي داخلك فأخفي غيرتي.. وأقف هنا وحيدة أطوع النفس على أن ترضى.. أحاول أن أعوّد هذا الخافق على غيابك، وعلى نزواتك، وعلى زئبقيتك!

قد تكون الغيرة ضعفا، وعدم ثقة كما يقولون.. لكني أعتقد أن ما يوجد الغيرة هي تلك التصرفات التي تزيد من شقوق فقدان الثقة!

الدموع ضعف ياحبيبي.. وهي حيلة من لا حيلة له، وأنا أغالبها وتقهرني، فأشعر بضعفي وقلة حيلتي، وأكره هذا.. واسترجع صدى كلمتك: أنت الأنثى المطمئنة الواثقة من عودتي إليها!

ليتني واثقة فقط مثلما تقول.. ولا أكون مطمئنة ولا راضية.. و يقتلني الخوف

كلما ابتعدت.. يهدني القلق كلما غاب صوتك، وكلما رددت أن روحك عطشي لمن يفهمها.. لتوأمها، وكلما قلت لي: إن عاطفتك وحيدة تبحث عن صداها وشطرها الآخر!

ماذا تظنني ياسيدي وحبيبي؟!

حتى الحيوان الأليف.. قد يصبح شرساً وكاسراً.. إذا واجه خطراً.

لا أريدك أن تؤذيني في مشاعري.. لأنني لا أدري ما هو رد الفعل عندي، ولا أحب أن تغيب من حياتي.. مثلما أنني لا أريد أن أحاسبك على ما تفعل وتقول.. فالناس لا تحاسب على مشاعرها.. وغيابك إحساس، ووجودك إحساس.. أليس كذلك.؟!

لا أريد أن يكبلك إحساسي، ولا أن يحدد تصرفك بكلمة قلتها لي.. وانما المهم الآن واليوم: ماذا تشعر.. وماذا تريد؟!

وان كنت أقول لك ذلك، وأكرره.. فلا تسأم مني، انني في حالة لا أحاسب عليها!

لست مجنونة.. وان كنت أتمنى ذلك الآن.

ومنذ التقينا، وحتى اليوم.. أسألك: هل اقتربنا أكثر.. هل جدّ ما يمكن أن يغير ما أقول، فيأتي بصورة لا تملها عيناك؟!

في كل مرة تغيب فيها.. تأخذ معك أحلامي وآمالي وثقتي في نفسي، وتأخذ أيضا ثقتي بعاطفتك و بكلماتك.. فهل أقوى على الصبر، وأملك الغفران لك؟!

وإن استطعت ذلك.. فهل أجزم بأن عذابي معك لم ينل من عاطفتي شيئاً؟!

مرة قال لي الرجل الأول في حياتي ــ زوجي مع وقف التنفيذ ــ هذه العبارة:

ــ إن المريض الذي يشكو مرضا عضالا.. عندما تعتريه نوبة ألم حاد، فإنه يتألم، و يتألم حتى يصل إلى مرحلة الغياب عن الوعي، وهذه نعمة ومنة من الله عليه!

لقد حدث لي ذلك من كثرة ما تألمت مع زوجي ومنه حتى وصلت في حياتي معه إلى مرحلة فقدان الوعي والتخدير!

و يبدو أن حالتي معك.. ستتحول من جديد إلى مثل ذلك الألم حتى حالة الغياب عن الوعي!

٣

عندما سألتني بعد عودتك من غياب طويل : هل اشتقت إليّ ؟!

يومها .. في تلك اللحظة أردت أن أعرف رد الفعل عندك .. فأجبتك : لا .. لم أشعر بالاشتياق لك !!

ما عرفت كيف أفسر، وكيف أشرح لك .. كأنني رهينة لحالة غيبوبة أخذتني ، ولكني أردت أن أنال من غرورك ، أومن « ثقتك » بنفسك كما تصف .. أردت أن أشهد انعكاس ووقع الكلمة عليك : أن تقول لك أنثى بثقة وبـــ « الفم المليان » : لم أشتق لك !

طبعاً .. لقد شاهدت الغيظ ، ووجهك يكاد يتميز منه ، ولكنك قوي تكبت مشاعرك عندما تريد . ورسمت ابتسامة على شفتي وأنا أتطلع إليك بنصف نظرة ، وأنت تبدو مندهشاً حين وقع الكلمة ، ثم شردت بك خواطرك .. ربما إلى أول يوم التقينا فيه ، أو أول نظرة سقطت بها صريع هوى أنثى !

فعلت ذلك معك لأستنفزك .. فقد كنت أخشى أن تأخذك أنثى أخرى .. بداية أخرى ، فتأخذ مني حتى عدم اهتمامك ، أوحنانك وحنينك ، ولا يبقى لي إلا إهمالك ولا مبالاتك ، وصوت بارد من أعماقك ، وكلمات المجاملة التي بلا روح !

تذكر أنه عندما تشدك أخرى بأي شكل ، أو بأية طريقة من براعات النساء في كسب اهتمام رجل .. فأنت حينئذ لم يعد يهمك أن تسأل عني أو أسأل عنك .

استرجع كلماتك الموحية إلى حد السخرية عندما نتحاور في إقبالك وحنينك لي .. كنت تقول بخيلاء لا أكرهها فيك :

ــ هذا يرجع لك .. فلو استطعت أن تحافظي عليّ ، وتحافظي عليك في داخلي ، فلن تستطيع أية أنثى أن تسرقني منك !

كنت تعرف أنك وحدك من يملك عواطفي وروحي .. بك أحلم ، وأنت أتمنى ، وحبك وحده ما يسعدني و يبني عالم أحلامي في إحساسي !

ماذا تريدني أن أصف لك بعد ، وماذا أقول ؟!

انتظرك ، وانتظرك .. و برغم الألم فالانتظار أرحم من اليأس منك ، وأرفق من حرمان يدوم ، فلا ألقاك ، أو أراك !

ترى .. لماذا لا أهرب .. لا أرحل عنك وأتخلص من كل هذا العذاب ؟!

وأعود .. لأفكر بقلبي: قد تحتاجني وتعود فلا تجدني .. قد تعود متألماً ، قد تعود مجهداً ، قد تعود ملولا كعادتك ، وتبحث عن أذن تصغى لبوحك ، وعن صدر يريح متاعب رأسك .

لابد أن انتظرك مهما طال بعادك .. انتظر طفلي الحبيب .. أضمه إلى صدري ، وأمسح عنه عذابه وآلامه وحزنه ، وأهدهده !

ما أحلى أن يعود الرجل إلى أنثى تحبه .. لابد أنها وحدها هي عالمه الحقيقي .. يضحكان معاً ، و يبكيان معاً، السعادة والألم .. الفرح والحزن معاً !

وتظل حبيبي ابداً وحياتي ..

وتظل العمر ، الضحكة والاستقرار ..

وتظل الرجل الحاني في عاصفة الأحزان .

تظل حبيبي ابداً .. فإذا غبت ، تكون حياتي لا أكثر من أنفاس على جدران صماء !

ترى .. ماذا يحدث لي إن ذهبت ولم تعد .. إن اخترت البقاء خارج عالمي ، وخارج جنوني بك ؟!

* * *

وأفقت من شرودي الطويل عندما جلست أتأمل وجهك بعد عودتك . كنت أنظر في عينيك الواسعتين ، وأصابع يدي تتخلل شعرك الكثيف .. ووجدتك على غير عادتك : هادئا ، ومستقراً بل مسترخيا تحت ذراعي ، وابتسمت أسألك :

ـــ ما هذا الهدوء العجيب .. النهر ساكن ، فأين عواصفك وأمواجك البيضاء المندفعة ؟!

ـــ أجبتني بصوت خفيض ، مستلقياً : أريد أن استريح .. لقد تعبت من الجري .

ـــ سألتك : الجري خلف من .. أو خلف أي شيء ؟!

ـــ أجبتني وأنت تغمض عينيك : الجري خلف السراب .

ـــ لم أجدك يائساً أو محبطا بهذا الشكل .. ماذا جرى ؟!

ـــ لا شيء .. فقط أنا تعبت !

ــ قلت لك ضاحكة مازحة : تعبت من النساء .. فكم أصبح عدد رعاياك ؟!
ــ أجبتني: نساء ايه.. ورعايا ايه.. انت فايقة!
ــ قلت لك : لأ .. أنا ليلى .. ولكن تكلم ، ماذا يزعجك اليوم ؟!
ــ أجبتني: لست منزعجا ، صدقيني.. ولكني أشعر بحزن عميق ينتشر في أعماقي.
ــ ولم الحزن.. ما أسبابه؟!
ــ صدقيني لا أعلم.. ربما شعور خفي.. أشعر أنني سأموت!
ــ قلت مقهقهة : ياسيديّ ، تخفف .. وإذا مت فلا بد أنك سترتاح ، فيه حد طايل الموت ؟!
ــ أجبتني: بالعكس.. فالموت في عالمنا اليوم هو الأكثر، هو المتفوق على الحياة.. حتى في الحب ، يقول الحبيب لحبيبه : أموت فيك .. فالموت هو السيد!
ــ ولكن.. ما أسباب هذا الشعور؟!
ــ لعلها الحاسة السادسة ، والاّ مكشوف عني الحجاب!

ضربتك على خدك بلين ، وأنهضتك من استرخاءتك.. وتكلمت كمن يهمس في أذنك:

ــ حبيبي.. لابد أنك متعب جداً، والذي لاقيته في عملك كان مرهقا لمشاعرك.. أعرفك ، أنت حساس ، ولكن العالم مادي، وشرس أيضا ، فلابد أن تواجه الماديات والشراسة بصلابة ، و بذلك العناد الذي أعرفه فيك ، والاّ تعاندني أنا لوحدي و بس ؟!
ــ أحس انني زهدت في كل شيء .. الأشياء الثمينة في الحياة انعدمت .. بيعت بأثمان بخسة . اللحظات الحميمة بين الناس أهدرت في الخلافات والمصالح .
ــ قاطعتك : حيلك . حيلك ، أنت راح تخطب والاّ إيه ؟!
ــ لا .. وحتى أريحك ، أقول لك باختصار: لقد استغنت المؤسسة عن خدماتي!
ــ فصلوك .. انت يفصلوك ، طيب ليه ، وكيف ؟!
ــ وانا مين يعني.. لو كنت بيكاسو، والاّ أرسطو.. صدقيني بالتعامل المادي الذي وصلنا إليه ، و بالمشاعر الأسمنتية التي غزت حياتنا .. كانوا فصلوا بيكاسو، وطردوا أرسطو، و بالوا على أرق شاعر!

ــ أرسطو ياحبيبي أرغموه أن يشرب السم !

ــ تعددت الأسباب .. والسم واحد !

ــ لكن العصر .. ما هو واحد ، العصر مختلف ، لا تستسلم .

ــ لو حدث هذا قبل عشر سنوات .. أما الآن فأشعر انني تقدمت عشرين عاماً نحو الشيخوخة !

ــ لكني .. ما عهدتك بهذه الروح !

ــ تقصدين الانخذال ؟!.. لا عليك . سأصب خلاصة تجربة العمر في ابداع إنساني .

ــ أعرف قدراتك ياحبيبي .. ولكن لا تبتئس . أضرب بها على عينها !

بلغنا حدود الصمت من جديد ، وما لبث هذا الصمت أن تحول إلى شرود سرق مني انتباهة «عادل» وأخذه إلى بعيد، ولكني حمدت للشرود فائدة واحدة ، وهي أنني بقيت جالسة أتأمل وجه «عادل» وأعب من ملامحه كعطشان يريد أن يرتوي .

وللمرة الأولى في عمر هذه العاطفة بيننا .. رأيت دمعة تنزلق من عيني «عادل» في شروده .. ما أصعب أن تطفر الدمعة من عيني رجل ، ولكني شعرت أنها ستريحه ، وتجعله يهدأ ، وإذا هدأ .. فسوف يحسن التفكير!

تمنيت لو شربت دمعته تلك .. فأجفف وجنتيه ، وأعيد الابتسامة إلى وجهه !

وجهه أجمل حينما يكون مبتسما .. أليست ابتسامته هي فجر عمري الدائم ؟!

وتنبه «عادل» على أصابعي .. تمسح دمعته . أمسك بأصابعي تلك وقرّبها من شفتيه وقبّلها ، وحدق في وجهي .. وشع وجهي بالفرح ، وأضاء وجهه بابتسامته الأليفة !

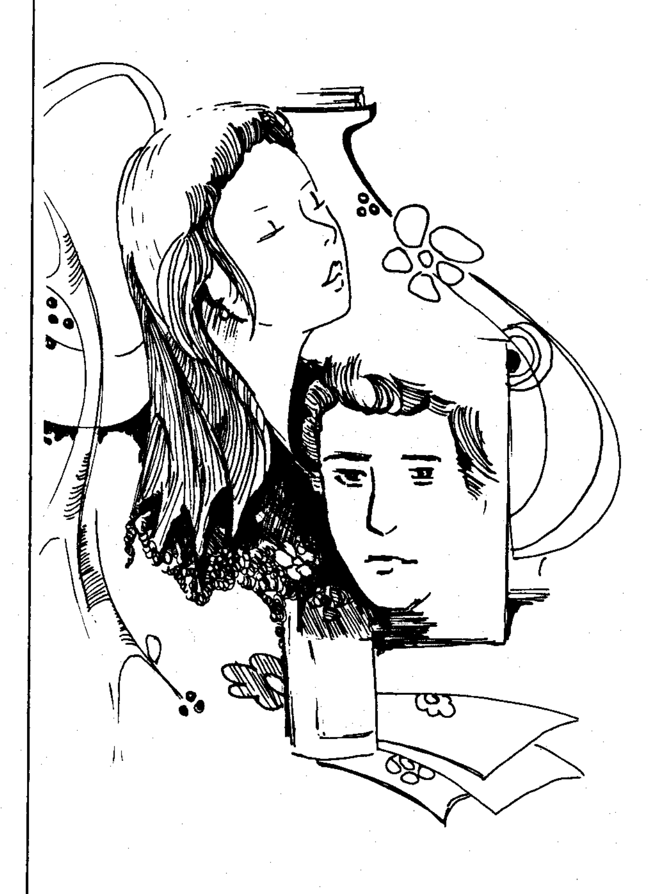
وركضت إليه في هذه المسافة القصيرة جداً بيننا .. ركضت ، ولهثت ، فإذا بي أرمي رأسي على كتفه ، وأضمه هامسة :

ــ أرجوك لا تحزن .. أرجوك لا تتركني .. أرجوك لا تفقد ابتسامتك !





الفصل السادس





١

« جيوفاني فرساشي » إنه اسم لعطر نسائي، قبل أن تحاول التخمين.. وأنا أعرفك لا تحفظ أسماء العطور، وتقول لي: هذا من أهم عيوبي.. أن لا أحفظ أسماء العطور، ولا أسماء ممثلات وممثلي السينما العالمية!

وكنت أجيبك بسخرية: وعلى ايه.. انت نجم، أشهر من أولئك الممثلين، وأنت أكثر عبقا من أشهر عطر!

وتتطلع إليّ بجانب عينك، ثم تقول: بس أنا ما أتغر.. الغواني فقط يغرهن الثناء!

وأستفزك، فأقول لك: يعني صدقت انك أشهر من الممثلين، وأذكى شذا من أشهر عطر؟!

ـ تقول: إذا كنت فعلاً تحبينني.. أكون كذلك!

ذلك العطر: « جيوفاني فرساشي » اكتشفناه في الصيف الماضي عندما ذهبنا إلى باريس. بعد الظهر.. نزلت مع ابنة أختي إلى السوق.. نبحث عن الجديد في باريس.. الموضة، العطر، حتى الوجوه.. لقد أصبحت الطفرة المالية عاملاً لتغيير الوجوه باستمرار!

ودخلنا محلاً لبيع العطور.. نسأل عن أحدث عطر.. فقدمت لنا الفتاة هذا « الجيوفاني ».

استنشقت رائحته.. كانت رائعة، وساحرة، و بخلت على نفسي به وأنا وحدي بعيدة عنك.

فلمن أضع العطر؟! لرجل يعبر بجانبي في الشارع؟!..لا.. لابد أن أحتفظ بهذه الرائحة الجديدة لك حتى ألقاك فأضع منها.. وتصبح رائحتي الأثيرة الجديدة التي تجعلك تحس بقدومي من مسافة بعيدة.. ألست امرأة مثل باقي النساء أمام الرجل الذي تحب؟!

ولم نطل جلوسنا في باريس .. لأ ول مرة أشعر بالملل ، لا أدري .. ربما كنتَ أنت السببِ .هل تذكر ما قلته لي مرة ؟

ــ قلت : أذهب إلى باريس لأسهر ولأضيع .. لذلك لا أميل إليها كثيراً .. إنها تشبه الأنثى الغانية التي تجعلني أدفع فلوساً كثيرة في مقابل ليلة واحدة !

ــ سألتك : وماذا تحب من مدن العالم ؟!

ــ قلت لي يومها : أحب أي قرية في العالم مكسوة بالأشجار والعشب ومسقوفة بالمطر !

ــ قلت لك : ولكن هذا شعر، خيال ، رومانسية .. شيء بعيد عن الواقع !

ــ قلت لي : بل هذه راحة .. حوار مع النفس .. صفاء ونقاء . شيء يعيننا على الصبر، وعلى أن نحتمل الواقع ولا نكفر به !

ولعلني كرهت باريس الصخب والأضواء والموسيقى المجنونة .. لقد أصبتني بالعدوى سامحك الله ، وهكذا أصبحت أميل إلى الهدوء ، وإلى الطبيعة ، وإلى الحقول .. تصور، حتى اللوحات التي دفعت مبالغ كبيرة ، ثمناً لها ، بدّلتها .. فهي لوحات من الفن الحديث .. و بحثت عن لوحات كلاسيكية ورائعة بالفعل ، وعلقتها على جدار بيتي .. فأنت مستعمر أحبه ، ولا أطيق رحيله !

* * *

وحزمت أمتعتي ، وركبت الطائرة متجهة إلى لندن .. والجميع يسألني :

ــ لماذا لندن بالذات .. نحن لا نحبها ؟!

ــ قلت لابن أخي ولابنة أختي : ثلا ثة أيام فقط ، ونذهب إلى حيث تريدون !

ــ قالوا : ولكن .. أخبرينا عن السبب ؟!

ولم يكن هناك سبب .. بل هناك حدس بأنني سألتقيك في لندن ..لئيم أنت .. لم تخبرني ، ولما عاتبتك بعد ذلك ، قلت لي :

ــ لم أكن أعلم .. لقد جاءت رحلة عمل مفاجئة . تصوري سأبقى لمدة ثلا ثة أيام فقط ...شيء مرهق جداً !

كنت أحلم بحاستي ، وأتخيل أنني وجدتك هناك ، وأمسكت بيدك ، وتحدثنا ، وشربنا الشاي معاً ، وأحطت كتفك بذراعي !

لقد تحقق الحلم بالفعل ..

كنت أعرف اسم الفندق الذي تعودت أن تسكن فيه كلما جئت إلى لندن. وسألت عنك بمجرد دخولي إلى الشقة التي نسكنها، وأجابتني موظفة الاستعلامات أنك تسكن بالفعل، ولكنك غير موجود الآن، وسألتني: إن كنت أرغب في ترك رسالة لك. شكرتها وفضلت أن أكون مفاجأتك في ذلك اليوم.. وهكذا في لحظة واحدة أصبحت الدنيا لا تسعني!

سأجدك بلا شك بعد الساعة الخامسة.. ستستريح، ثم تنطلق إلى السهر.. أعرفك، ولك برنامج غير مشوق بالنسبة لي لو كنت وحدي، ولكنه برنامج حافل لو كنا معاً.

إذن.. لقد تحقق حلم آخر: أن أراك في لندن. ومنتهى الجشع لو طلبت أكثر من هذا!!

وحرصت أن أتواجد في بهو الفندق في تمام الخامسة عصراً، لأ راك تدخل منهكاً. ولتراني جالسة انتظرك في أكمل زينتي، كشهرزاد!

يوم أن رأيتك هناك.. كان اليوم الذي لا ينسى. دخلت إلى بهو الفندق وأنا أراك دون أن تلحظني، واتجهت لتأخذ مفتاح غرفتك. كان التعب باديا عليك وتحتاج لحمام دافيء.

أذكر أنني في ذلك اليوم وضعت هذا العطر الجديد الذي قدمت به من باريس.. وحتى اليوم، كلما رأيت الزجاجة، أو تعطرت بعطرها، لابد أن تكون معي في أي مكان، وفي أي وقت، وكيفما كانت حالتي.. تكون قريبا، وأكاد أشعر بيدك في يدي، وأسمع صوتك!

أقسم لك أن ما اكتبه لك الآن وأقوله، هو الحقيقة، لا الخيال!

حلمت بك البارحة، وليس هذا بجديد، ولكن الحلم جعلني أتصور أنني كنت أحيا، وأن يقظتي هي الحلم. وفي الحلم جئت إليّ تقول:

ــ ليلى.. انني متعب ومرهق، أريد أن أنام، فهل أستطيع؟

ــ قلت لك: تعال معي.. سترتاح على سريري.

أخذتك من يدك، وسرنا معاً، لم تكن ردهة عادية، بل كانت طو يلة. ولم يكن هناك ضوء.. تحسسنا طريقنا في الظلام، وعندما وصلنا بعد وقت ليس قصيراً.. اكتشفت أن سريري أكبر من حجمه الطبيعي، ولونه أبيض أبيض، بياضا غير عادي، ووسادة واحدة في منتصفه!

استلقيت أنت، ووضعت رأسك على الوسادة، وجلست أنا بجوارك.. ودون أن تتكلم، مددت يدك وسحبتني إلى جوارك.

ــ قلت لك: كيف ننام.. ولا توجد غير هذه الوسادة وهي لك؟!

ــ قلت لي: تكفينا معاً.

وأغمضت عينيك أنت.. بينما بقيت أنا أحدق في السقف.

لم يكن هناك سقف.. بل سماء زرقاء، زرقاء.. ونجوم منتشرة بكثرة.

ــ سألتك: أين السقف؟!

فلم تجبني.

ــ أين القمر.. هل سرقوه، هل سقط من السماء.. ولماذا؟!

فتحت عينيك، ونظرت إلى السماء.. ولكن دون أن تندهش مثلما حدث لي.

ــ أجبتني: القمر هناك!

ــ قلت لك: لا.. انني لا أراه!

ــ سألتني: هل أنت خائفة؟!

ــ قلت لك: لا.. ولكني مندهشة. هذه الغرفة تشبه غرفتي، ولكن لا أشعر أنها هي.. والسقف، أين هو.. والنور، من أين يأتي هذا النور؟!

وضعت يدك على خصري، وقلت لي:

ــ التفتي إليّ، كلميني!

ــ قلت: لا أستطيع، فإن التفت، وأدرت لك وجهي فسيكون من الصعب عليّ التلفت!!

ــ قلت لي: حاولي.. جربي.

وعندما استدرت.. رأيت أشياء كثيرة.. كثيرة!!

٢

عندما استدرت ــوما زال حلماًــ انزلقت يدك عن خصري، وانتقلت فوق ظهري.. ورأيت وجهك في هذه اللحظة من الحلم.. كان يبدو كبيراً جداً، لا استطيع أن أحتضنه بكفيّ.. ورأيت عينيك فيهما عمق واسع جداً، خفت أن أتطلع إلى اتساعهما وعمقهما، ورفعت يدي ألمس بها أرنبة أنفك.. واكتشفت أن أنفك قد تضخم!

وأغمضت عيني.. حاولت أن أقول لك شيئا، واصطدمت شفتاي بشفتيك!

نمت أو لم أنم.. لم أدر ما الذي حدث بعد ذلك. استيقظت، وكان ما رأيت أكبر من حلم، وقد يدل على تفسيرات عديدة. وفي صحوي تلفت حولي فرأيت سقف حجرتي!

حلمت بك كثيراً.. ولكني دائما أحلم بك بعيداً.. لم تكن قريبا مني إلى هذا الحد. قد أكون تخيلتك بهذا القرب، ولكني لم أحلم بك من قبل إلا وأنا أحاول التحدث إليك، أو أحاول اللحاق بك، أو لأ راك مع الآخرين وفيهم!

مهما حدث، ومهما كان وسيكون في الغيب.. أرجوك أن تكون قريباً مني، لا تتركني وحدي.

أنت لا تعرف من تكون بالنسبة لي مهما صوّرتك.. فهل تعرف أنني ألوم الدنيا والظروف لأنهما أخرا اقترابي منك، ولقائي بك كل هذا الزمن ؟!

ما زلت أتمنى لو كنت أنا هذه الأنثى القوية أمامك، التي تستطيع أن تستحوذ عليك قلبا وعقلا ووقتا، فاستحق الحب بالفعل، وأنال من رضاك وعطفك ما يغسلني ويطهرني وينتشلني من كل الأحداث التي عانيت منها!

لم أكن امرأة ضعيفة قط طوال حياتي، وبالذات مع الرجل.. كنت قوية، أفرض ما أريد وأرغب وأقرر، وكانت القرارات ملكي وحدي.. لكنني معك تبدلت، أصبحت إنسانة أخرى، حتى القرارات لم تعد ملكي، وأشعر اليوم أن الجميع يريد أن يأكلني لأنه يستضعفني!

لا ألومك أنت. ولكني أتساءل: هل الحب يضعف، أم من المفروض أن يمنح الإنسانة قدرات أعظم ليكون قو يا وفعّالا؟!

هل تعرف أنني كلما نظرت إلى المرآة بعد أن عرفتك.. تمنيت لو كنت أجمل.. لو كنت أصغر؟!

ذلك يحدث كثيراً.. حتى الفساتين التي اشتريتها، أحب لو ارتديها لك أول مرة.. أحب لو أعرف: هل تعجبك؟!

أحب لو أملك أمر قلبك، كنت وضعت فيه نصف، بل ربع ما يملأ قلبي فلا بد أنه سيكفيني حباً لي، وأتمنى أن يطول عمرك، وتكون سعيداً، وأتمنى أن أموت قبلك.. فأنا لا أتصور، أو أتخيل أن أحيا في الدنيا، وكيف تكون دنيا وأنت غائب عنها، وكيف أحيا وأنت دنياي.. دنياي؟!

لذلك كله.. كثيراً ما تمنيت أن يكون هناك ما يشغلني.. ما يأخذني و يشدني من دائرتك، فيأخذ حيزاً ولو صغيراً من اهتماماتي.. لعلني ارتاح قليلا، وأدعو ربي أن لا يكون هناك مزيد من الحب.. فالذي لك منه عندي يكفي العالم كله!

* * *

لكن هذه الأمنيات أيضا لم تعد خالصة في حياتي.. فهناك ما ينغص حتى أحلام اليقظة!

وهل هناك أقسى من «حسين» هذا الذي ربط حياتي بإهماله ولا مبالا ته حتى يخيل إليّ أنه سيدفن هذه الحياة ببطء حتى آخر رمق لي؟

لقد رفضت أن أراه في أي مكان، رغم كثرة إلحاحات أخي أن نجلس معاً: أنا وأخي، وننظر في مطالبه، فإن وافقت قدرتنا على تنفيذها رضينا بها واتفقنا، وتعود المياه إلى مجاريها، وإن استبد الخلاف كان علينا أن نحل هذه المعضلة المزمنة بالحسنى، وكل واحد يذهب إلى حاله ودنياه و يصبح حراً!

وكنت أتوقع أن يصدر من «حسين» أي موقف خاطىء، وأي عناد، وأي إصرار على حماقة يرتكبها، فأردت أن أتحاشاه، فاجتنب ما قد يسببه لي من إهانة، أو سخرية. و يضاف هذا كله إلى تقززي من الجلوس معه أو التحدث إليه!

صدقني.. لقد بت أكرهه.. وأخاف أن تُعدي هذه الكراهية مشاعري نحو كل رجل، فيصيبني بعقدة يصعب الشفاء منها!

ولكني كلما حاورت نفسي.. أفصل «حسين» من رجال المجتمع السوي، فهو رجل غير طبيعي. مليء بالعقد، وبالغرور، ويوصله عناده أيضا إلى الحماقة. عرفته كثيراً وعانيت من هذه المعرفة!

وتركت أخي يذهب إليه في بيته.. بعد أن اتصل به وأخبره أن أمي مريضة، وأنني لا أستطيع الحضور إلى الموعد للتفاهم.

ــ قال لأخي بذلك الغرور والتعالي: لا بأس.. تأتي أو لا تأتي.. أريد أن أتفاهم مع رجال لأ بت الموضوع الذي طال وأصاب عفونة!

كانت تعبيراته قذرة دائماً كرائحة نفسه وأفكاره.

ــ أجابه أخي: لا نريد أن نغلط في الكلام «يا حسين»، فنحن نجتمع في وشيجة دم، والخلاف لا يعني القتل. سآتي إليك مساء الغد في بيتك ومعي صديق الطرفين «صالح»!

ــ قال حسين: تريده شاهداً.. أنا لا أرجع في كلامي، ولا ألحس كلامي!

ــ أجابه أخي: لا أقصد ذلك، ألم نقل لا نريد أن نغلط؟.. ولكن صالح يعرف المشكلة. والواحد منا يتفاءل بواسطة الخير.

ــ قال حسين: وساطة لمين.. لي أنا، أم لزوجتي التي تعصاني وترفض أن تعود إلى بيتها وزوجها؟!

ــ قال أخي: على كل حال لا تفتح الموضوع الآن.. وموعدنا هو مساء الغد الساعة التاسعة.. ما رأيك؟!

وأخبرني أخي بهذا الموعد. وشدني الاستغراب والتساؤل، فقلت له:

ــ ولكن.. ما دخل صديقكما «صالح» لماذا الغريب، هل تريد أن تحرجه، أم تلزمه بما يقول؟!

ــ قال أخي: لا هذا ولا ذاك.. أريد فقط أن أكشفه أمام أصحابه وأصدقائه، ولا شك أن «صالح» سيقول لكل الأصدقاء عن تصرفه الذي سيفعله؟!

ـ قلت : وهل تتوقع منه تصرفاً مشينا إلى درجة أنك تكمن له بصالح ليفضحه ؟!

ـ قال أخي : إنني لا أتوقع ، بل أجزم أنه ندل ، ولكنني لا أتكهن بالذي سيقوله أو يطلبه في مقابل منحك حريتك بعد سنوات طو يلة من هذا التعليق والاهمال !

ـ قلت بأسى : وماذا تتكهن غير أن يتحفكم بالخبر الجديد الذي لا تعلمون أنتم جميع أهله وأصدقائه به ؟!

ـ قال أخي يتساءل مندهشا : خبر جديد .. ماذا تعنين ؟!

ـ قلت : أعني أن السيد « حسين » ـ زوجي ـ مقبل على دنيا جديدة ، وأنه خطب لنفسه فتاة صغيرة جداً .. تصغره بعشرين عاماً ، أقصد لو أننا أنجبنا منذ ارتبطنا لكانت لنا فتاة عروسة في سن هذه التي سيتزوجها !

ـ قال أخي : عجيب .. من أخبرك ، وكيف علمت ، قد تكون مكيدة ؟

ـ قلت : ومكيدة ليه ؟.. أنا لم أغضب ، ولكنني أفتش عن حقي ، ومن حقوقي أن أطلق منه ، وأسترجع حريتي ، وليهنأ بلعبته الجديدة !

وسمعت أخي يحادث نفسه كمن يهذى :

ـ عجيب .. وكيف وافق أهل الفتاة على زواج كهذا غير متكافىء ؟!

ـ قلت لأخي : لا عليك ، اهدأ .. فالمشكلة تمس حياتي ، وأنا كفيلة بتجاوزها ، وصدقني أنني لم أغضب ، ولم أشعر بالغيرة .. فالمرأة تغار على رجل تحبه .. المهم أن تنهي لي هذه المشكلة ، وتعود إليّ بصك تحريري من عبودية هذا الرجل .. فتكون بذلك قد ساعدتني على كتابة عمر جديد لي .. حتى لو كان هذا العمر شهراً ، أو يوماً واحداً ، أو لحظة فقط !

ـ قال أخي : إلى هذه الدرجة أصبحت تكرهينه ؟!

ـ قلت : حتى الكراهية لا يستحقها .. انني أحتقره ، والاحتقار اسقاط تام !

ـ قال : غداً إن شاء الله آتيك بالخبر اليقين !



لم تذق عيناي طعم الكرى.. بت أتقلب فوق فراشي كسمكة في مقلاة، أتألم، أحترق، أحتار، أتساءل.. أستعجل هذا الليل الطويل أن ينجلي ليأتي صبح الغد، والنهار له عيون كما يقولون.. سيضيع في زحمة الناس، وفي الزيارة.. وسيأتي مساء الغد، وذلك الموعد ــ المصير.

أعرف أن الموعد لن يستغرق ساعات طويلة، بل لعله أكثر اختصاراً.. فأنا أعرف تماماً نفسية «حسين» وسوداوية مشاعره.. وحتى ينتهي النقاش، ويخرج أخي ويأتي إلى بيتي.. أكون قد قتلت عشرات المرات!

إنني لا أفكر حزنا على هذا الإنفصال.. فأنا التي أطلب ذلك وألح عليه بأي ثمن.. لكن تفكيري ينحصر في خوفي من استمرار امتناع زوجي عن تخليصي من ربقته.. حينذاك سأضطر إلى رفع قضية ضده، وإلى ارتياد المحاكم والتفرغ لهذا الأمر الذي يريده.. لمزيد من اذلالي واخضاعي لشهوة الانتقام مني.. وحتى تخرج القضية من المحكمة أكون أنا قد صفيت تماماً وانتهيت.. ويكون هو غارق في بحر العسل مع عروسه الجديدة التي سمعت أنه «سيستوردها» من بلاد بره، لتنجب له أطفالا أكثر صفاء منه، ومن ظلام نفسه!

وقمت من سريري، وقد هجم القلق على كل خفقة، وكل نبضة مني.. خفت أن تفلت أعصابي. خفت أن أجهش بالبكاء في هذا الليل البهيم، وما بهيم إلا الحيوان الناطق!

خفت أن تستيقظ أمي، فتحمل همي، ولا تنام ابدأ.

ورغم أنني استعنت على النوم بحبتي فاليوم، وبجرعة من شراب الكحة ليخدرني فأنام ساعة أو اثنين فقط، حتى استطيع أن أواجه الانتظار الممل يوم غد.. رغم ذلك لم يكتحل جفناي بالنوم.. استهلكت كميات هائلة من السجائر منذ انتصف الليل!

ترى.. ما الذي يكون، لورفض هذه المرة أن يطلقني؟!

لا شيء.. مثل كل مرة، وطوال السنوات السحيقة التي مرت، وكنت فيها كما

يقال: لا أنا مطلقة ولا أنا معلقة!.. حتى هذا «التعليق» لم أحظ به، ولكني في اعتبار كل الأسرة والناس، ما أزال الزوجة التي على ذمة زوجها.. لابد أن ترعى سمعته وأن تحافظ على التقاليد.. بينما هو يسرح ويمرح، لا تهمه سمعة، ولا يراعى التقاليد.. وفي كل يوم هو في بلد، وفي ذراعه فتاة. و يبدو أن المرأة وحدها هي التي ينبغي أن تحافظ على السمعة وعلى التقاليد، والرجل يعبث كما يريد.. كأن المرأة ما زالت في هذا الشرق من السبايا!

أوف.. يا ربي، أعني على هذه الليلة و يوم غد، حتى أنام في مساء جديد قريرة ومطمئنة وامتلك حريتي!

ولا أدري كيف مرت ليلة البارحة.. فقد أشفق النعاس عليّ، فحملني مع تباشير الصباح، وهدهدني.. ليدخل بي عالم النوم المريح.. فلم أستيقظ إلا بعد الظهر، وكأن أمي كانت ترقب معاناتي وآلامي، فلم تحاول ايقاظي، فالنوم راحة لي من الأفكار والتخمين والتوقع.

ولكني استيقظت بعد الظهر على قرع جرس الباب.. قمت فزعة، أركض في الصالة الكبيرة، ووجدت أمي قد سبقتني إلى الباب، ورأيتها تأخذ من السائق مجموعة كبيرة من الصحف والمجلات التي اعتاد السائق أن يحضرها من المكتبة.

ــ سألت أمي وأنا أتثاءب: كم الساعة الآن؟!
ــ قالت تسخر بابتسامة: اسم الله عليكي.. دخلنا على الثالثة بعد الظهر!
ــ قلت: أحسن!
ــ تساءلت أمي: ماذا قلت؟!

ولم أجبها.. فما زال النوم يحتشد في عيني بعد ارهاق وآلام الليلة الماضية، ولكني بعد أن صحوت، من المستحيل أن أعود إلى النوم، بل ستفترسني الأفكار والتوقعات، ومن الأفضل لي أن أصحو، وأن أتغدى، وأصك رأسي بفنجان قهوة معتبر!

وكنت أتحول إلى هياج وجنون كلما رن الهاتف، أو قرع جرس الباب.. أحسبه أخي قد عاد بالبشارة!

ولا أدري كيف احتملت كل هذا التوتر والتحفز، حتى بلغت الساعة العاشرة مساء.. وقد تركت كل شيء، ولم يعد يعنيني إلا رنين الهاتف أوقرع جرس الباب.

تركت التليفزيون، قذفت بالمجلات، و بقيت انتظر الخلاص!

تعبت من هذا الانتظار.. وشعرت أن أعصابي قد تلاشت جميعها بسبب هذا التوتر، وكدت أجن بعد كل الانتظار الساحق، لولا أن تعالى صوت جرس الباب، وقفزت أركض لأفتح.

كان وجه أخي.. كانت نظراته.. كان جسمه الطويل!

ولكن خيل إليّ لحظتها.. أن هذا الوجه ليس وجهه، والنظرات ليست له، وقد تضاءل جسمه الفارع!

كأنه لبس على وجهه قناعاً يبرز ملامح وجه زوجي، والنظرات مباعة للحيرة!

ــ صرخت في وجهه: ماذا حدث.. لم أعد أحتمل أكثر من عذاب ليلة و يوم.. تكلم؟!

ــ قال أخي: أخبارك صحيحة.. فقد خطب فتاة في العشرين، وسيتزوجها في الشهر القادم!

ــ قلت متوترة: قديمة.. ما الجديد المفيد؟!

ــ قال أخي كأنه يهمس: إنه نذل.. نذل!

ــ قلت ساخرة: برضه قديمة.. اكتشفت ذلك من سنوات!

ــ قال أخي: لقد وافق على الطلاق أخيراً.. ولكن بشرط!

ــ قلت متلهفة: أخيراً.. الحمدلله، كل شروطه أنفذها!

ــ قال: ولكنه نذل بالفعل!

ــ قلت متعجلة: لم يبق عندي صبر.. تكلم ما هوشرطه؟

ــ قال: إنه يطلب ثمنا لحريتك والخلاص من عبوديته!

ــ قلت: طلب فلوساً يعني.. كم يريد، فأنا أعرف دناوته!

ــ قال أخي: اشترط أن تدفعي له مبلغ نصف مليون ريال!

ووجمت في اللحظة الأولى.. وتنقلت النظرات من عيني إلى عيني أمي.. إلى

عيني أخي.

وكان لابد لي أن ابتسم بمرارة، فما زالت المرأة تباع بالفلوس.. المشاعر كذبة كبرى. وما زال الرجل ينظر إلى المرأة كمتاع.. أنا في نظره الآن متاع قديم.. روبابيكيا، ولكنه يريد أن يكسب منها في الحراج!

ـ قلت: انه يقصد البيع!

ـ قالت أمي: يابنتي.. يمكن الرجل حب يعجزكم بهادا المبلغ اللي ماهو عندكم لأنه يقصد أن يحتفظ بك كزوجة وترجعي له!

ـ قلت: ياماما من فضلك.. ده جزار بيبيع لحمة. أنا تحولت إلى لحمة معلقة للبيع، وكيف يفكر اني أرجع له وهوخاطب وراح يتجوز بعد شهر!

ـ قالت أمي: أنا عارفة.. المهم ما نسيء الظن بالناس!

ـ قلت: ده ما يسموه إساءة ظن ياماما ياطيبة، ولكن يسموه إثبات ظن وسوء. بس كيف ومن فين ادفع له النصف مليون، وكل اللي عندي في البنك حوالي نصف هذا المبلغ.

ـ قال أخي: والله ياأختي.. يعني أنا خجلان منك.. العين بصيرة.

ـ قاطعته: لم أطلب منك ياأخي.. عارفة مسبقا، لكن يمهلنا فترة بس ومستعدة أعطي له اقرار بدفع هذا المبلغ كدين.

ـ قال أخي: ألم أقل لك انه نذل.. لقد اشترط أن يكون الدفع خلال نصف شهر، وإذا تأخرنا عن ذلك فسيرفع المبلغ إلى مليون!

وأسقط في يدي.. ولم أشعر إلا بدموعي تنزلق من عيني بصمت!

هل هناك ذل أعظم من هذا.. وهل هناك إنسان تجرد من إنسانيته بمثل هذا التشوه؟!

ـ قلت لأخي: لا عليك.. دعني أفكر للغد وأعطيك رأيي!

٤

تخلصت من توتر وقلق الليلة السابقة، ولكنني سقطت في أسى لا يوصف..

أصبحت أعاني من الإحباط، ومن الفجيعة، ومن القرف.. ما ظننت أن الحياة الحلوة تتعفن بمثل هذا السلوك الذي اتبعه «حسين» معي!

وهرعت إلى القرآن الكريم.. لا أدري كيف اندفعت إلى غرفتي بحماس. ألوذ إلى آيات القرآن فهي ستمنح داخلي طمأنينة ودعة. كيف نسيت القرآن ليلة البارحة، انني جربت ذلك في لحظات محنة أو حزن أو ألم.. وأشعر بعد الترتيل بصفاء النفس.

قرأت.. وانهمرت دموعي.

وقرأت.. لا أريد أن أتوقف.

ونمت.. أخذني السبات العميق، فلم استيقظ إلا في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي.

قالت لي أمي في الصباح:

ــ لقد جئت أطمئن عليك في الليل.. فوجدتك متكئة برأسك على مقدمة السرير، والمصحف بين يديك وفوق صدرك وأنت نائمة.. وسحبت المصحف وعدلت نومتك. وغطيتك وفرحت أنك تذكرت القرآن.

ــ قلت لأمي على الفطار: عندي فكرة.. نخلص بها من شرط «حسين» وهي: أن أبيع الفيلا الصغيرة، ونسدد من ثمنها المبلغ الذي اشترطه، والفلوس تروح وتجي ياأمي.

ــ قالت أمي وقد انزلقت دمعة على خديها: اللي تشوفيه يابنتي.. بس الفيلا دي وخّرها أبوك لك بالاسم.. قال قبل مايموت: الفيلا دي لليلى و بس!

ــ قلت: معليش.. ربنا يعوض ونجيب أحسن منها. المهم نخلص ياماما.

وقمت إلى أمي، احتضنها، وأقبل رأسها. وسارعت إلى الهاتف أطلب أخي. ووعدني أن يحضر بعد العصر.. بعد أن اختصرت له شرح فكرتي للخلاص!

وافق أخي، وعرضنا الفيلا للبيع. ومر أسبوع، والمهلة تتناقص أيامها.. ولا من

مشتر يأخذ الفيلا حتى بثمن بخس !

لكن أخي بعد أسبوع .. جاءني يحمل لي عرضا ، لم يكن مفاجئا لي في هذا الزمن المادي !

ــ قال أخي : لقد تم تسعير الفيلا وقيّمناها من مكاتب عقار عديدة ، واتفقوا جميعاً أنها لا تستحق أكثر من مليون ريال .

ــ قلت : وأنا بعت .. فهات الشيك !

ــ قال أخي مندهشا : وكيف عرفت أنني الذي سأشتري الفيلا ؟!

ــ قلت : ليس مهماً الآن من يشتريها .. حتى لو كان « حسين » نفسه .. المهم أن تسلمني المبلغ اليوم ، وندع اجراءات الافراغ والصك تسير وفق النظام المعتاد .

وأخرج أخي من جيبه دفتر الشيكات ، وكتب باسمي مبلغ مليون ريال .

وفي الصباح الباكر .. كنت قد انتهيت من صرف الشيك وايداعه في حسابي ، وحررت شيكا باسم « حسين » بمبلغ نصف مليون ريال !

واتصلت بأخي .. طلبت منه أن يبلغ « حسين » أن المبلغ أصبح جاهزاً ، وأن عليه أن يحرر ورقة الطلاق لنذهب بها في الغد إلى المحكمة لتصكيكها .

وذهل أخي عندما حضر ، وهو يراني أرتدي ثياباً فاخرة ، وأبدو في كامل زينتي .

ــ قال مندهشا : هل حوّلوا السهرات إلى النهار .. ايه ده كله .. تبدين جميلة جداً !

ــ قلت مبتسمة : أجمل سهرة انتظرها في أهم فترات العمر التي ضاعت .

ــ قال : إلى أين ؟!

ــ قلت : معك .. سنذهب إلى « حسين » أليس هو حتى هذه اللحظة زوجي ؟ فمن حقه أن يرى زينتي ، ومن حقي أن أسلمه ثمن النعجة التي أراد ذبحها .

* * *

لم يكن « حسين » يعلم بقدومي مع أخي .

أردت أن أجعلها مفاجأة له .. لأدعه يضطرب ، فلا يجد الفرصة ليفكر في خبث جديد يرميني به ، فلم أعد أحتمل وخزاً جديداً ، ولا أن أدمي أكثر مما نزفت من شبابي

وعمري.

وصعق «حسين» وهو يراني في صالونه الكبير. كان ينتظر قدوم أخي بالمبلغ، وفتح لنا الخادم، وأوصلتنا خادمة في الداخل إلى الصالون. ورائحة عطري تفوح فتملأ المكان والأنوف والصدور.

وحاول أن يتماسك و يربط جأشه، وأن يقابلني بنفس البرود المعتاد والسخرية، فقال يحادثني:

ــ يتهيأ لي انك خسيتي شو ية!

ــ قلت مبتسمة: وانت برضة «خسيت» بس ما هو في جسمك!

عرف معنى كلمتي «خسيت» التي ضغطت على مخارج حروفها، بأنها تعني الخسة. وابتلع ريقه، ثم قال:

ــ على أية حال.. الحياة صفقة. جبت الفلوس.

ــ قلت: الورقة أولاً.. سلم أسلمك.

ــ قال: لا.. في دي أعرفك أمينة جداً.. هذي هي الورقة.. خذي.

ــ قلت وأنا أتسلمها منه: في كل حياتي معك كنت أمينة، والآن بعد هذي الورقة سأصبح آمنة مستقرة مطمئنة حرة.

وأخذت الورقة، وكنت أمام أمي في البيت أرقص.. أطير في الفرح.. أضحك بهستيريا.

واكتمل اطمئناني في اليوم التالي بعد أن عدنا من المحكمة أنا وأخي، و بين يدي صك تحرري من «حسين» بعد سنوات عجاف، سوداء، قاحلة، مميتة!

* * *

هدأت الآن..

أريد أن أنام عدة أيام..

لا.. بل أريد أن أراك ياحبيبي.. أين أنت، تراني نسيتك في ركضي وراء تحقيق حريتي، أم تراك أنت خذلتني ونسيتني فابتعدت عني؟!

اغفر لي.. فلم أسأل عنك طوال نصف شهر.. كنت فيها أتخيل نفسي عروساً

صغيرة أزف إليك، فكان شعور الفرح هذا ممزوجاً بشعور الترح والتعاسة والتوتر الذي عشته في فترة المساومة على حريتي!

اغفر لي.. فأنا أحبك.

لا.. فأنا لم أحب أحداً غيرك، ولكني لم أنس ياحبيبي أنني أحلم!

لم أنس أنك أصبحت في حياتي «كل» حلمي.. وأنني في حياتك لا أعدو «جزءاً» من حلمك.

لاينبغي لي أن أطلب المستحيل.. قلت لك مرة: أعرف أنك لست لي!

الآن هدأت.. وصك حريتي بين يدي، وقلبي يزداد وجيبه حباً لك وشوقا وحناناً!

أية أنثى في مكاني.. ينحصر تفكيرها في شيء واحد، وهو: أن تمتلك الرجل الذي أحبته!

أنا أعرف أنني لا أقدر أن أحقق هذا الحلم.. وأنت أيضا لا تستطيع أن تسعدني به..

لا أنت ولا الزمن.. عذابي يتجدد في فقدك الدائم.. في تطو يعي لأشواقي لك..

ولكني أعجز أن امتلكك، لأنك أنت لست ملكا لنفسك.

ترى.. ما الذي يمكن أن أفعله الآن بعد أن أصبحت حرة؟!

أن أحبك أكثر وأعنف.. وأين أنت، لأخبرك على الأقل؟!

هل تعرف ماذا حصدت الآن؟!

لقد باعني زوجي بالفلوس، واشتريت نفسي بالسأم للفراغ!

وأنت.. لقد بعتني نفسك لفترة زمنية بكلمة حب.. أردت أن تسعدني بها لأرتاح. ولكن.. هل ارتحت الآن حقاً؟!

بدأت الكلام معك بالخفقة وليس بالنبرة أو بالحرف.. كنت أريد أن أتخطى بحبك ذلك الصمت المفتون على شفاهنا المنفرجة بالدهشة!

كان طريقي إلى آفاقك وعالمك وجنونك وحنانك.. طريقاً مسكوناً بمناجم الأسئلة، و بآلاف النجوم التي تدلني على ابتسامتك!

أحببت ابتسامتك، حتى حسبتها عمري.. واخترعت من ولهي الصادق بك.. اجتيازاً يوصلني إلى ولادتك في حضارة روحي.. و يوصلك معي إلى «حنان يقطر مني لأجيال»!

فمن أنت الآن؟!

ما زلت حبيبي، وكل حلمي.. ولكني لم أعد أطيق أن أطاردك لاصطاد صوتك، أو اعتقل ابتسامتك في عيني.. فقد تعبت منك أيضا، وتعبت بك!

الآن.. أريد أن استرخي، وأحدق في السماء.. أن أعايش تفسير ذلك الحلم الذي ضمنا معاً.. حين رأيت بيتي بلا سقف، أو السماء سقفه. أنظر.. لقد فسّر الحلم الآن!

ومن أنا الآن عندك؟!

انني هذا الـ «جزء» من حلم.. عَبَرَ حياتك، وحاول أن يكبر و يكبر ليكون هو الحلم المتكامل والوحيد.. دون جدوى!

ولست نادمة -صدقني- بل أشعر بسعادة.. فالعالم كله يتلاشى في استرخاءتي هذه.. وتبقى أنت وحدك كل عالمي!!



للمؤلف

١ــ حياة جائعة:

ــ مجموعة قصص قصيرة.

٢ــ الجدار الآخر:

ــ مجموعة قصص قصيرة.

٣ــ الظمأ:

ــ مجموعة قصص قصيرة.

٤ــ لحظات:

ــ خواطر وتأملات.

٥ــ حوار.. وصدى:

ــ رؤية انسانية عبر الحوار.

٦ــ نبض:

ــ مضمون انساني «ابداع»

٧ــ حوار في الحزن الدافىء:

ــ ميلودراما حوارية

كتب تحت الطبع

١ــ أبواب للريح والشمس:

ــ قراءات أدبية فكرية.

٢ــ سواح.. في الغربة:

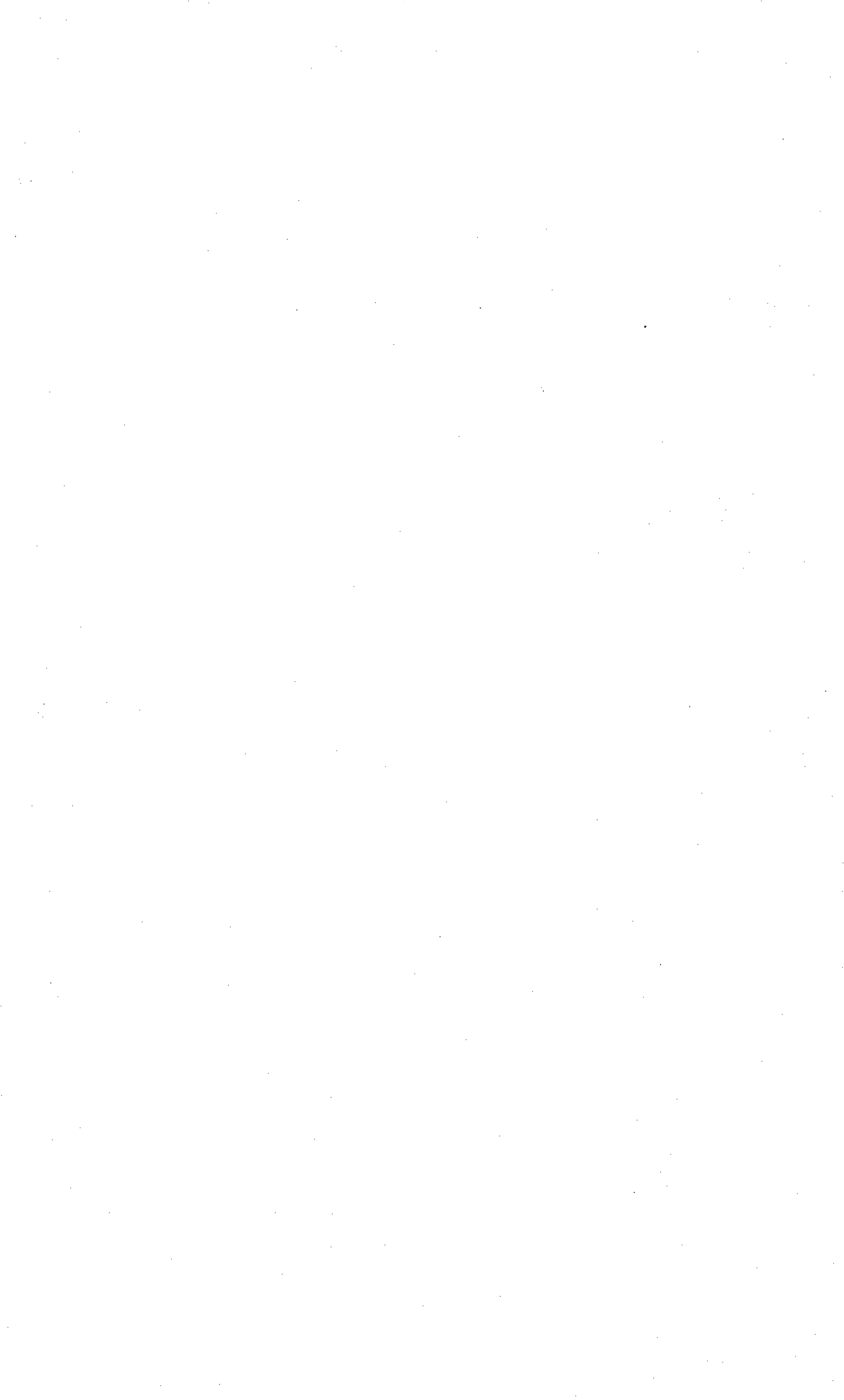
ــ رحلات.

٣ــ ذلك الشقي:

ــ رواية.

٤ــ أنفاس.. على جدار القلب:

ــ رؤية وجدانية اجتماعية.



إصدارات: تهامة للنشر والمكتبات

سلسلة: الكتاب العربي السعودي

صدر منها:

العنوان	المؤلف
الجبل الذي صار سهلا (نقد)	الأستاذ أحمد قنديل
من ذكريات مسافر	الأستاذ محمد عمر توفيق
عهد الصبا في البادية (قصة مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
التنمية قضية (نقد)	الدكتور محمود محمد سفر
قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا (نقد)	الدكتور سليمان بن محمد الغنام
الظمأ (مجموعة قصصية)	الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
الدوامة (قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
غداً أنسى (قصة طويلة) (نقد)	الدكتورة أمل محمد شطا
موضوعات اقتصادية معاصرة	الدكتور علي بن طلال الجهني
أزمة الطاقة إلى أين؟	الدكتور عبدالعزيز حسين الصويغ
نحو تربية إسلامية	الأستاذ أحمد محمد جمال
إلى ابنتي شيرين	الأستاذ حمزة شحاتة
رفات عقل	الأستاذ حمزة شحاتة
شرح قصيدة البردة	الدكتور محمود حسن زيني
عواطف إنسانية (ديوان شعر) (نقد)	الدكتورة مريم البغدادي
تاريخ عمارة المسجد الحرام (نقد)	الشيخ حسين عبدالله باسلامة
وقفة	الدكتور عبدالله حسين باسلامة
خالتي كدرجان (مجموعة قصصية) (نقد)	الأستاذ أحمد السباعي
أفكار بلا زمن	الأستاذ عبدالله الحصين
كتاب في علم إدارة الأفراد (الطبعة الثانية)	الأستاذ عبدالوهاب عبدالواسع
الإبحار في ليل الشجن (ديوان شعر)	الأستاذ محمد الفهد العيسى
طه حسين والشيخان	الأستاذ محمد عمر توفيق
التنمية وجها لوجه	الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
الحضارة تحد (نقد)	الدكتور محمود محمد سفر
عبير الذكريات (ديوان شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
لحظة ضعف (قصة طويلة)	الأستاذ فؤاد صادق مفتي
الرجولة عماد الخلق الفاضل	الأستاذ حمزة شحاتة
ثمرات قلم	الأستاذ محمد حسين زيدان
بائع التبغ (مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ حمزة بوقري
أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة (تراجم)	الأستاذ محمد علي مغربي
النجم الفريد (مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
مكانك تحمدي	الأستاذ أحمد محمد جمال
قال وقلت	الأستاذ أحمد السباعي
نبض	الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
نبت الأرض	الدكتورة فاتنة أمين شاكر

الكتاب	المؤلف
• **السعد وعد** (مسرحية)	الدكتور عصام خوقير
• **قصص من سومرست موم** (مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• **عن هذا وذاك** (الطبعة الثالثة)	الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
• **الأصداف** (ديوان شعر)	الأستاذ أحمد قنديل
• **الأمثال الشعبية في مدن الحجاز** (الطبعة الثانية)	الأستاذ أحمد السباعي
• **أفكار تربوية**	الدكتور ابراهيم عباس نتو
• **فلسفة المجانين**	الأستاذ سعد البواردي
• **خدعتني بحبها** (مجموعة قصصية)	الأستاذ عبدالله بوقس
• **نقر العصافير** (ديوان شعر)	الأستاذ أحمد قنديل
• **التاريخ العربي وبدايته** (الطبعة الثالثة)	الأستاذ أمين مدني
• **المجاز بين اليمامة والحجاز** (الطبعة الثانية)	الأستاذ عبدالله بن خميس
• **تاريخ الكعبة المعظمة** (الطبعة الثانية)	الشيخ حسين عبدالله باسلامة
• **خواطر جريئة**	الأستاذ حسن بن عبدالله آل الشيخ
• **السنيورة** (قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
• **رسائل إلى ابن بطوطة** (ديوان شعر)	الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
• **جسور إلى القمة** (تراجم)	الأستاذ عزيز ضياء
• **تأملات في دروب الحق والباطل**	الشيخ عبدالله عبدالغني خياط
• **الحمى** (ديوان شعر) (الطبعة الثانية)	الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
• **قضايا ومشكلات لغوية**	الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار
• **ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة**	الأستاذ محمد علي مغربي
• **زيد الخير**	الأستاذ عبدالعزيز الرفاعي
• **الشوق إليك** (مسرحية شعرية)	الأستاذ حسين عبدالله سراج
• **كلمة ونصف**	الأستاذ محمد حسين زيدان
• **شيء من الحصاد**	الأستاذ حامد حسن مطاوع
• **أصداء قلم**	الأستاذ محمود عارف
• **قضايا سياسية معاصرة**	الدكتور فؤاد عبدالسلام الفارسي
• **نشأة وتطور الإذاعة في المجتمع السعودي**	الأستاذ بدر أحمد كريم
• **الإعلام موقف**	الدكتور محمود محمد سفر
• **الجنس الناعم في ظل الإسلام**	الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
• **ألحان مغترب** (ديوان شعر) (الطبعة الثانية)	الأستاذ طاهر زمخشري
• **غرام ولادة** (مسرحية شعرية) (الطبعة الثانية)	الأستاذ حسين عبدالله سراج
• **سير وتراجم** (الطبعة الثالثة)	الأستاذ عمر عبدالجبار
• **الموزون والمخزون**	الشيخ أبوتراب الظاهري
• **لجام الأقلام**	الشيخ أبوتراب الظاهري
• **نقاد من الغرب**	الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
• **حوار.. في الحزن الدافيء**	الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
• **صحة الأسرة**	الدكتور زهير أحمد السباعي
• **سباعيات** (الجزء الثاني)	الأستاذ أحمد السباعي
• **خلافة أبي بكر الصديق**	الشيخ حسين عبدالله باسلامة
• **البترول والمستقبل العربي** (الطبعة الثانية)	الأستاذ عبدالعزيز مؤمنة
• **إليها ..** (ديوان شعر)	الأستاذ حسين عبدالله سراج
• **من حديث الكتب** (ثلاثة أجزاء) (الطبعة الثانية)	الأستاذ محمد سعيد العامودي

• أيامي		الأستاذ أحمد السباعي
• التعليم في المملكة العربية السعودية	(الطبعة الثانية)	الأستاذ عبدالوهاب عبدالواسع
• أحاديث وقضايا إنسانية		الدكتور عبدالرحمن بن حسن النفيسة
• البعث	(مجموعة قصصية)	الأستاذ محمد علي مغربي
• شمعة ظمأى	(ديوان شعر)	الدكتور أسامة عبدالرحمن
• الإسلام في نظر أعلام الغرب	(الطبعة الثانية)	الشيخ حسين عبدالله باسلامة
• حتى لا نفقد الذاكرة		الأستاذ سعد البواردي
• مدارسنا والتربية	(الطبعة الثالثة)	الأستاذ عبدالواهاب عبدالواسع
• وحي الصحراء	(الطبعة الثانية)	الأستاذ عبدالله بلخير الأستاذ محمد سعيد عبدالمقصود خوجه
• طيور الأبابيل	(ديوان شعر) (الطبعة الثانية)	الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
• قصص من تاغور	(ترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• التنظيم القضائي في المملكة العربية السعودية	(الطبعة الثانية)	الأستاذ حسن بن عبدالله آل الشيخ
• زوجتي وأنا	(قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
• معجم اللهجة المحلية في منطقة جازان		الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي
• لن تلحد		الشيخ أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري
• عمر بن أبي ربيعة	(الطبعة الثانية)	الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
• رجالات الحجاز	(تراجم)	الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
• حكاية جيلين		الدكتور عبدالله حسين باسلامة
• من أوراقي		الأستاذ محمد سعيد العامودي
• الإسلام في معترك الفكر		الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
• إليكم شباب الأمة		الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
• في رأيي المتواضع		الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
• العالم إلى أين والعرب إلى أين؟		الدكتور بهاء بن حسين عزي
• البرق والبريد والهاتف وصلتها بالحب والأشواق والعواطف		الأستاذ عبدالرحمن المعمر
• محمد سعيد عبدالمقصود خوجة	(حياته وآثاره)	الدكتور محمد بن سعيد بن حسين
• جزء من حلم		الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري

تحت الطبع:

• خواطر مجنحة		الأستاذ محمد حسين زيدان
• ماما زبيدة	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عزيز ضياء
• وجيز النقد عند العرب		الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
• هكذا علمني ورد زورث		الشيخ أبوعبدالرحمن بن عقيل الظاهري
• الطاقة نظرة شاملة		الدكتور عبدالهادي طاهر
• لا رق في القرآن		الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
• من مقالات عبدالله عبدالجبار		الأستاذ عبدالله عبدالجبار
• ديوان حسين عرب		الأستاذ حسين عرب
• التنمية قضية	(الطبعة الثانية)	الدكتور محمود محمد سفر
• قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا التوسعية	(الطبعة الثانية)	الدكتور سليمان بن محمد الغنام
• غداً أنسى	(قصة طويلة) (الطبعة الثانية)	الدكتورة أمل محمد شطا
• تاريخ عمارة المسجد الحرام	(الطبعة الثانية)	الشيخ حسين عبدالله باسلامة

- الحضارة تحد (الطبعة الثانية) — الدكتور محمود محمد سفر
- الجبل الذي صار سهلا (الطبعة الثانية) — الأستاذ أحمد قنديل
- خالتي كدرجان (مجموعة قصصية) (الطبعة الثانية) — الأستاذ أحمد السباعي

سلسلة: الكتاب الجامعي

صدر منها:

- الإدارة : دراسة تحليلية للوظائف والقرارات الإدارية — الدكتور مدني عبدالقادر علاقي
- الجراحة المتقدمة في سرطان الرأس والعنق (باللغة الإنجليزية) — الدكتور فؤاد زهران، الدكتور عدنان جمجوم، الدكتور محمد عيد
- النمو من الطفولة إلى المراهقة (الطبعة الثالثة) — الدكتور محمد جميل منصور، الدكتور فاروق سيد عبدالسلام
- الحضارة الإسلامية في صقلية وجنوب إيطاليا — الدكتور عبدالمنعم رسلان
- النفط العربي وصناعة تكريره — الدكتور أحمد رمضان شقلية
- الملامح الجغرافية لدروب الحجيج — الأستاذ سيد عبدالمجيد بكر
- علاقة الآباء بالأبناء (دراسة فقهية) (الطبعة الثانية) — الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
- مباديء القانون لرجال الأعمال (الطبعة الثانية) — الدكتور محمد ابراهيم أبوالعينين
- الاتجاهات العددية والنوعية للدوريات السعودية — الأستاذ هاشم عبده هاشم
- قراءات في مشكلات الطفولة (الطبعة الثانية) — الدكتور محمد جميل منصور
- شعراء التروبادور (ترجمة) — الدكتورة مريم البغدادي
- الفكر التربوي في رعاية الموهوبين — الدكتور لطفي بركات أحمد
- النظرية النسبية — الدكتور عبدالرحمن فكري، الدكتور محمد عبدالهادي كامل
- أمراض الأذن والأنف والحنجرة (باللغة الإنجليزية) — الدكتور أمين عبدالله سراج، الدكتور سراج مصطفى زقزوق
- المدخل في دراسة الأدب — الدكتورة مريم البغدادي
- الرعاية التربوية للمكفوفين — الدكتور لطفي بركات أحمد
- أضواء على نظام الأسرة في الإسلام — الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
- الوحدات النقدية المملوكية — الدكتور سامح عبدالرحمن فهمي
- الأدب المقارن (دراسة في العلاقة بين الأدب العربي والآداب الأوروبية) — الدكتور عبدالوهاب علي الحكمي
- هندسة النظام الكوني في القرآن الكريم — الدكتور عبدالعليم عبدالرحمن خضر
- التجربة الأكاديمية لجامعة البترول والمعادن — الدكتور خضير سعود الخضير
- مباديء الطرق الإحصائية — الدكتور جلال الصياد، الدكتور عبدالحميد محمد ربيع
- مباديء الإحصاء — الدكتور جلال الصياد، الأستاذ عادل سمرة
- المنظمات الاقتصادية الدولية — الدكتور حسين عمر

العنوان	المؤلف
• التعلم الصفى	الدكتور محمد زياد حمدان

تحت الطبع :

العنوان	المؤلف
• الاقتصاد الاداري	الدكتور فرج عزت
• الاقتصاد الصناعي	الدكتور سليم كامل درويش
• دراسات في الإعراب	الدكتور عبدالهادي الفضلي
• أحكام تصرفات السفيه في الشريعة الإسلامية	الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
• أحكام تصرفات الصغير في الشريعة الإسلامية	الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
• العلاقات الدولية	الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي

سلسلة :

رسائل جامعية

صدر منها :

العنوان	المؤلف
• صناعة النقل البحري والتنمية في المملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية)	الدكتور بهاء حسين عزّي
• الخراسانيون ودورهم السياسي في العصر العباسي الأول	الأستاذة ثريا حافظ عرفة
• الملك عبدالعزيز ومؤتمر الكويت	الأستاذة موضي بنت منصور بن عبدالعزيز آل سعود
• العثمانيون والإمام القاسم بن علي في اليمن (الطبعة الثانية)	الأستاذة أميرة علي المداح
• القصة في أدب الجاحظ	الأستاذ عبدالله باقازي
• تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف	الأستاذة فوزية حسين مطر
• النظرية التربوية الإسلامية	الأستاذة آمال حمزة المرزوقي
• نظام الحسبة في العراق.. حتى عصر المأمون	الأستاذ رشاد عباس معتوق
• المقصد العلي في زوائد أبي يعلي الموصلي (تحقيق ودراسة)	الدكتور نايف بن هاشم الدعيس
• الجانب التطبيقي في التربية الإسلامية	الأستاذة ليلى عبدالرشيد عطار
• الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية	الأستاذ نبيل عبدالحي رضوان
• دراسة ناقدة لأساليب التربية المعاصرة في ضوء الإسلام	الأستاذة فتحية عمر حلواني
• الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المدينة المنورة في صدر الإسلام	الأستاذة نورة بنت عبدالملك آل الشيخ
• دراسة اثنوغرافية لمنطقة الاحساء (باللغة الانجليزية)	الدكتور فايز عبدالحميد طيب
• عادات وتقاليد الزواج بالمنطقة الغربية من المملكة العربية السعودية (دراسة ميدانية انثروبولوجية حديثة)	الأستاذ أحمد عبدالاله عبدالجبار
• افتراءات فيليب حتي وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامي	الأستاذ عبدالكريم علي باز
• دور المياه الجوفية في مشروعات الري والصرف بمنطقة الإحساء بالمملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية)	الدكتور فايز عبدالحميد طيب
• تقويم النمو الجسماني والنشوء	الدكتورة ظلال محمود رضا
• العقوبات التفويضية وأهدافها في ضوء الكتاب والسنة	الدكتور مطيع الله دخيل الله اللهيبي
• العقوبات المقدرة وحكمة تشريعها في ضوء الكتاب والسنة	الدكتور مطيع الله دخيل الله اللهيبي

تحت الطبع :

- تطور الكتابات والنقوش في الحجاز منذ فجر الإسلام وحتى منتصف القرن الثالث عشر — الأستاذ محمد فهد عبدالله الفعر
- التصنيع والتحضر في مدينة جدة — الأستاذة عواطف فيصل بياري
- الطلب على الإسكان من حيث الاستهلاك والاستثمار — الدكتور فاروق صالح الخطيب
- تعليم اللغة الإنجليزية (باللغة الإنجليزية) — الأستاذ مأمون يوسف بنجر
- التحريف والتناقض في الأناجيل الأربعة — الأستاذة سارة حامد محمد العبادي



صَدرمنها :

- حارس الفندق القديم (مجموعة قصصية) — الأستاذ صالح ابراهيم
- دراسة نقدية لفكر زكي مبارك (باللغة الانجليزية) — الدكتور محمود الشهابي
- التخلف الإملائي — الأستاذة نوال عبدالمنعم قاضي
- ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية — إعداد إدارة النشر بتهامة
- ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودي (باللغة الانجليزية) — إعداد إدارة النشر بتهامة
- تسالي (من الشعر الشعبي) (الطبعة الثانية) — الدكتور حسن يوسف نصيف
- كتاب مجلة الأحكام الشرعية على مذهب الإمام أحمد بن حنبل الشيباني — الشيخ أحمد بن عبدالله القاري
  (دراسة وتحقيق) — الدكتور عبدالوهاب إبراهيم أبوسليمان، الدكتور محمد إبراهيم أحمد علي
- النفس الإنسانية في القرآن الكريم — الأستاذ إبراهيم سرسيق
- واقع التعليم في المملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية) (الطبعة الثانية) — الدكتور عبدالله محمد الزيد
- صحة العائلة في بلد عربي متطور (باللغة الإنجليزية) — الدكتور زهير أحمد السباعي
- مساء يوم في آذار (مجموعة قصصية) — الأستاذ محمد منصور الشقحاء
- النبش في جرح قديم (مجموعة قصصية) — الأستاذ السيد عبدالرؤوف
- الرياضة عند العرب في الجاهلية وصدر الإسلام — الدكتور محمد أمين ساعاتي
- الاستراتيجية النفطية ودول الأوبك — الأستاذ أحمد محمد طاشكندي
- الدليل الأبجدي في شرح نظام العمل السعودي — الدكتور عاطف فخري
- رعب على ضفاف بحيرة جنيف — الأستاذ شكيب الأموي
- العقل لا يكفي (مجموعة قصصية) — الأستاذ محمد علي الشيخ
- أيام مبعثرة (مجموعة قصصية) — الأستاذ فؤاد عنقاوي
- مواسم الشمس المقبلة (مجموعة قصصية) — الأستاذ محمد علي قدس
- ماذا تعرف عن الأمراض ؟ — الدكتور اسماعيل الهلباوي
- جهاز الكلية الصناعية — الدكتور عبدالوهاب عبدالرحمن مظهر
- القرآن وبناء الإنسان — الأستاذ صلاح البكري
- اعترافات أدبائنا في سيرهم الذاتية — الأستاذ علي عبده بركات
- الطب النفسي معناه وأبعاده — الدكتور محمد محمد خليل
- الزمن الذي مضى (مجموعة قصصية) — الأستاذ صالح ابراهيم

• مجموعة الخضراء (دواوين شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
• خطوط وكلمات (رسوم كاريكاتورية) (الطبعة الثانية)	الأستاذ علي الخرجي
• ديوان السلطانين	الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي
• الامكانات النووية للعرب وإسرائيل	الدكتور صدقة يحيى مستعجل
• رحلة الربيع	الأستاذ فؤاد شاكر
• وللخوف عيون (مجموعة قصصية)	أحمد شريف الرفاعي
• البحث عن بداية (مجموعة قصصية)	الأستاذ جواد صيداوي
• الوحدة الموضوعية في سورة يوسف	الدكتور حسن محمد باجودة
• المجنونة اسمها زهرة عباد الشمس (ديوان شعر) (الطبعة الثانية)	الأستاذة منى غزال
• من فكرة لفكرة (الجزء الأول)	الأستاذ مصطفى أمين
• رحلات وذكريات	الأستاذ عبدالله حمد الحقيل
• ذكريات لا تنسى	الأستاذ محمد المجذوب
• تاريخ طب الأطفال عند العرب	الدكتور محمود الحاج قاسم
• مشكلات بنات	الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
• دراسة في نظام التخطيط في المملكة العربية السعودية	الأستاذ يوسف ابراهيم سلوم
• نفحات من طيبة (ديوان شعر)	الأستاذ علي حافظ
• الأسر القرشية.. أعيان مكة المحمية	الأستاذ أبو هشام عبدالله عباس بن صديق
• الماء ومسيرة التنمية (في المملكة العربية السعودية	الأستاذ مصطفى نوري عثمان
• الدليل لكتابة البحوث الجامعية	الدكتور عبدالوهاب ابراهيم أبوسليمان
• القطار والحبل (مجموعة قصصية) (الطبعة الثانية)	الأستاذ السيد عبدالرؤوف
• المذاهب الأدبية في الشعر الحديث لجنوب المملكة العربية السعودية	الدكتور علي علي مصطفى صبح
• مسائل شخصية	الأستاذ مصطفى أمين
• مجموعة النيل (دواوين شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
• عام ١٩٨٤ لجورج أورويل (قصة مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• من فكرة لفكرة (الجزء الثاني)	الأستاذ مصطفى أمين
• مجموعة فاروق جويدة (دواوين شعر)	الأستاذ فاروق جويدة

تحت الطبع:

• سرايا الإسلام	الشيخ أبو تراب الظاهري
• قراءات في التربية وعلم النفس	الأستاذ فخري حسين عزي الدكتور لطفي بركات أحمد
• الحجاز واليمن في العصر الأيوبي	الدكتور جميل حرب محمود حسين
• ملامح وأفكار	الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
• النظرية الخلقية عند ابن تيمية	الدكتور محمد عبدالله عفيفي
• الكشاف الجامع لمجلة المنهل	الأستاذ عبدالله سالم القحطاني
• ديوان حمام (ديوان شعر)	الأستاذ محمد مصطفى حمام
• رحلة الأندلس	الدكتور حسين مؤنس
• فجر الأندلس	الدكتور حسين مؤنس
• قريش والاسلام	الدكتور حسين مؤنس
• الدفاع عن الثقافة	الدكتور عبدالعزيز شرف

- في بيتك طبيب — الدكتور محمد عبدالله القصيمي
- الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث — الأستاذ علي مصطفى عبداللطيف السحرتي
- مشكلات لغوية — الدكتور شوقي النجار
- دليل مكة السياحي — اعداد تهامة للنشر والمكتبات
- البسمات — الدكتور حسن نصيف
- نسيب الشريف الرضي: الحجازيات وقصائد أخر — الدكتور عاتكة الخزرجي
- الزكاة في الميزان — الدكتور محمد السعيد وهبة / الأستاذ عبدالعزيز محمد رشيد جمجوم
- السبئيون وسد مأرب — الأستاذ محمود جلال

سلسلة:

الكتاب العربي اليمني

تحت الطبع،

- تاريخ آداب اليمن في العصر العباسي — الأستاذ أحمد محمد الشامي
- بغية المريد وأنس الفريد — الأستاذ عامر بن محمد بن عبدالله
  - (تحقيق) الأستاذ محمد محمد الشعيبي
  - (مراجعة وتعليق) الأستاذ احمد محمد الشامي

كتاب للأطفال

صدر منها :

مجموعة : حكايات للأطفال

ينقلها إلى العربية الأستاذ عزيز ضياء

- سعاد لا تعرف الساعة
- الحصان الذي فقد ذيله
- تورتة الفراولة
- ضيوف نار الزينة
- الضفدع العجوز والعنكبوت
- الكؤوس الفضية الاثنتا عشر
- سرحانة وعلبة الكبريت
- الجنيات تخرج من علب الهدايا
- السيارة السحرية
- كيف يستخدم الملح في صيد الطيور

تحت الطبع

- الأرنب الطائر
- معظم النار من مستصغر الشرر
- لبنى والفراشة
- ساطور حمدان
- وأدوا الأمانات إلى أهلها
- سوسن وظلها
- الهدية التي قدمها سمير
- أبو الحسن الصغير الذي كان جائعا
- الأم ياسمينة واللص

مجموعة : لكل حيوان قصة

للأستاذ يعقوب محمد اسحاق

- القرد
- الكلب
- السلحفاة
- الأسد
- الحمار الأهلي
- الفرس
- الغزال
- الوعل
- الضب
- الغراب
- الجمل
- البغل
- الفراشة
- الدجاج
- الحمار الوحشي
- الجاموس
- الثعلب
- الأرنب
- الذئب
- الفأر
- الخروف
- البط
- الببغاء
- الحمامة
- البوم
- الضبع
- الهدهد
- الكنغر
- الخفاش
- النعام
- فرس النهر
- التمساح
- الضفدع
- الدب
- الخرتيت

مجموعة : حكايات كليلة ودمنة

إعداد : الأستاذ يعقوب محمد اسحاق

- عندما أصبح القرد نجارا
- الغراب يهزم الثعبان
- أسد غررت به أرنب
- المكاء التي خدعت السمكات

تحت الطبع

- لقد صدق الجمل
- الكلمة التي قتلت صاحبتها
- سمكة ضيعها الكسل
- قاض يحرق شجرة كاذبة

مجموعة : التربية الإسلامية — للأستاذ يعقوب محمد اسحاق

- الله أكبر
- الصلاة
- صلاة المسبوق
- الشهادتان
- قد قامت الصلاة
- الاستخارة
- صلاة الجمعة
- أركان الإسلام
- الصوم
- صلاة الجنازة
- صلاة الكسوف والخسوف
- التيمم
- الوضوء
- الصدقات
- سجود التلاوة
- زكاة النقدين
- المسح على الخفين
- الزكاة
- زكاة بهيمة الأنعام
- المسح على الجبيرة والعُصابة
- زكاة الفطر
- زكاة العروض

قصص متنوعة :

• الصرصور والنملة	الأستاذ عمار بلغيث
• السمكات الثلاث	الأستاذ عمار بلغيث
• النخلة الطيبة	الأستاذ اسماعيل دياب
• الكتكوت المتشرد	الأستاذ عمار بلغيث
• المظهر الخادع	الأستاذ عمار بلغيث
• بطوط وكتكت	الأستاذ اسماعيل دياب

كتاب الناشئين

صدر منها :

مجموعة:وطني الحبيب

• جدة القديمة	الأستاذ يعقوب محمد اسحق
• جدة الحديثة	الأستاذ يعقوب محمد اسحق

مجموعة:حكايات ألف ليلة وليلة

• السندباد والبحر	الأستاذ يعقوب محمد اسحق

• الديك المغرور والفلاح وحماره	الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
• الطاقية العجيبة	الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
• الزهرة والفراشة	الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
• سلمان وسليمان	الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
• زهور البابونج	الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
• سنبلة القمح وشجرة الزيتون	الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
• نظيمة وغنيمة	الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
• جزيرة السعادة	الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
• الحديقة المهجورة	الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
• اليد السفلى	الدكتور محمد عبده يماني
إعداد	الأستاذ يعقوب محمد اسحق
• عقبة بن نافع	الدكتور عبدالفتاح اسماعيل شلبي، الدكتور سعد اسماعيل شلبي

كتب صدرت باللغة الانجليزية

Books Published in English by *TIHAMA*

- Surgery of Advanced Cancer of Head and Neck.

  By: F.M. Zahran / A.M.R. Jamjoom / M.D.EED

- Zaki Mubarak: ACritical Study.
  By Dr. Mahmud Al Shihabi

- Summary of Saudi Arabian Third Five Year Development Plan.

- Education in Saudi Arabia, A Model With Difference Second Edition.
  By: Dr. Abdulla Mohamed A Zaid

- The Health of the Family in A Changing Arabia. (*Third Edition*)
  By Dr. Zohair A. Sebai

- Diseases of Ear, Nose and Throat.

  By: Dr. Amin A. Siraj / Dr. Siraj A. Zakzouk

- Shipping and Development in Saudi Arabia.
  By: Dr. Baha Bin Hussein 'Azzee

- Tihama Economic Directory.

- Riyadh Citiguide.

- Banking and Investment in Saudi Arabia.

- A Guide to Hotels in Saudi Arabia.

- Who's Who in Saudi Arabia.

- An Ethnographic Study of Al-Hasa Region of Eastern Saudi Arabia.
  By: Dr. Faiz Abdelhameed Taib.

- The Role Of Groundwater In The Irrigation And Drainage Of The Al- Hasa Of Eastern Saudi Arabia.
  By: Dr. Faiz Abdelhameed Taib

- An Analysis Of The Effect Of Capitalizing Exploration And Development Costs In The Petroleum Industry-With Emphasis On Possible Economic Consequences In Saudi Arabia.
  By: Muhiadin R. Tarabzune

- An Evolving Typology Of Constructs Of Critical Thinking, Curriculum Planning And Decision Making In Teacher Education Programs Based On The Islamic Ideology.
  The Case Of Saudi Arabia
  By: Ahmad Issam Al-Safadi



النصر للطباعة والتغليف

تلفون : ٦٦٠٦٤٣٥ ـ ص.ب ١٢٣٢٨ ـ جدة



• يعيش القارئ مع الكاتب "عبدالله الجفري" جوعه إلى الحب، وإيمانه بالحب - حب المرأة، وحب القيم، وحب الناس - قوة ترش الخصب والنماء في قلب الواقع المتحجر!

يعيش القارئ مع الكاتب: تلك اللحظات مع الحبيبة التي يعذبها الخوف من السعادة، كما يعذبها الخوف من الشقاء، والتي تريد أن تتمتع في نفس الوقت بلذة السر، وروعة المكاشفة، والتي تنتهي دائماً بليل من الرحيل.

ويعيش القارئ مع الكاتب: حيرته، وغربته في مجتمع مشغول عن الحب والأدب والقيم بحل الكلمات المتقاطعة!

• الجفري لا يقدم لك الكلام المحنط القديم في آنية جديدة، ولا يزف لك أفكار الآخرين المهترئة تحت مكياج مثير.. بل يطالعك بوجهه وبكلماته بصوته، ويحدثك عن أفكاره الخاصة، ويستوي لديه بعد أن تصفق إعجاباً، أو تصد اشمئزازاً!

• إن الجرأة اللغوية ذاتها تدفع "الجفري" في بعض الأحيان إلى اهتمام بالغ بالألفاظ والتشبيهات والصور، يكاد يدير رأس القارئ، ويكاد ينسى في زحمة هذا الخضم [illegible] من الصور والتشبيهات والتجسيدات اعترافه بأن وراء هذا كله مجرد نداء يوجهه صديق إلى صديق.

• إن عملية التذوق الأدبي تحتاج إلى شيء من التعاطف الفكري بين الكاتب والقارئ، يمكن الثاني من فهم الرسالة الموجهة إليه من الأول.. وأتمنى أن يمسح الباكون على أدبنا دموعهم ساعات يقرأون فيها - إن لم يكونوا قد نسوا القراءة! - ليدركوا أن أدبنا لم يعد بحاجة إلى باكين ومتباكين ووعاظ ونصاح.. بل إلى قراء ونقاد!

غازي القصيبي

نبذة عن حياة المؤلف في كتابه "الظمأ"
سلسلة الكتاب العربي السعودي رقم ٦